وداعا ايها الماضي
الكاتبة : رويدة الدعمي

1

فتح عينيه فوجد نفسه في مكان يجهله ! أدار رأسه في أرجاء الغرفة فلم يرَ سوى أشياء غريبة !

كان هناك صوت منتظم يطرق سمعه في كل ثانية، حاول أن يتعرف على مصدر ذلك الصوت.. رفع رأسه فإذا بها ساعة جدارية قد عُلِّقت على الجدار الذي يستند عليه سريره.. ما هذا المكان؟ وكيف وصل إليه؟

أسئلة كثيرة تدور في رأسه الذي يبدو شبه فارغ إلا منها!!

نعم لا يوجد في رأسه غير تلك الأسئلة المُحيرة : من أنا؟ ما هو إسمي؟ ما هذه الأشياء الغريبة التي حولي؟ أظن أنني أراها لأول مرة في حياتي!

ووسط هذه التساؤلات الكثيرة التي ما عاد رأسه يسعها سمع صوت الباب يُفتح بهدوء..

حاول الجلوس تهيئًا منه لاستقبال القادم المجهول.. لعلّهُ يملك إجابات واضحة لاسئلته المبهمة!!

فُتِحَت الباب ودخل رجل في الخمسين من عمره، الشيب الذي ملأ شعره وابتسامته الجميلة أدخلا شيئًا من الطمأنينة إلى قلب ذلك الشاب..

بادرهُ الرجل الخمسيني بالحديث قائلًا :

- أهلًا بك في بيتك الثاني يا ولدي..

شعر الشاب بأنه وصل إلى جزء من الحقيقة الغامضة.. نعم فهذا ليس بيته.. كما إعتقد هو بالضبط منذ البداية!!

حاول التكلم بأدب :

- عفوًا يا عم.. ولكن من تكون أنت؟ بل من أكون أنا ؟!

تغيرت ملامح الرجل بعد سماعه لهذا السؤال! فقد عرف من خلاله بأن هذا الشاب الذي أنقذ حياته ليلة أمس قد فقد ذاكرته!

حاول أن يبدو أكثر تماسكًا ليجيب عن تساؤل الشاب، قال وقد تغيرت نبرة صوته عن الأول :

- أنت.. أنت.. أنت "مؤمل" يا ولدي.

- مؤمل! حسنًا.. ومن تكون أنت؟

تلعثم الرجل في الإجابة؟ فماذا يقول له؟!

هل يكذب عليه ويدّعي بأنه والده؟!

هل هذه فرصة ارسلها الله إليه ليحقق أمنيته في أن يسمع ولو لمرة واحدة في حياته كلمة " أبي"؟!

هذه الكلمة التي طالما حلم بأن هناك من سيناديه بها في يومٍ ما.. والآن وبعد مرور عشرات السنين على زواجه.. هل ستتحقق تلك الأمنية؟!

لا.. أبدًا.. لم يمارس أحمد الزيف والخديعة في حياته مطلقًا، فكيف يضعف الآن أمام هذا الاختبار الإلهي؟ وكيف يمكن له أن يخدع هذا الشاب المسكين الذي قد تعود إليه ذاكرته بين لحظةٍ وأخرى؟!

أبعدَ هذه الوساوس من رأسه وصار متهيئًا لقول الحقيقة بالكامل.

- إسمع يا ولدي.. لقد وجدتك ليلة أمس أسفل الجبل وقد أغمي عليك.. أظنك قد وقعت بسيارتك من تلك المنطقة الجبلية بعد أن تساقطت الثلوج عليها بكثافة فأصبح الطريق غير ملائم للسياقة مما أدى إلى حصول ذلك الحادث المؤسف!

- وكيف عرفت يا عم بأن إسمي مؤمل؟

ابتسم أحمد ابتسامة باهتة قد تركت وراءها حزنًا طويلًا صار مرسومًا على ملامح وجهه ..قال بأسى :

- هذا ما كنت أتمنى أن أسمي به ولدي.. أما اسمك الحقيقي فلم أعثر في جيبك على أي شيء يدلّني عليه!

- وهل يعني هذا بأنني الآن مجهول الهوية؟

ابتسم أحمد بحزن وهو يقول : تقريبًا!

وضع مؤمل يده على رأسه وهو يقول :

- ليس تقريبًا يا عم.. بل قل إنني مجهول الهوية فعلًا!

قطع حديثهما صوت طرق الباب..

قال أحمد بصوتٍ شجي :

- ادخلي يا أم مؤمل!

شعر الشاب بأن دقات قلبه تزداد بعد أن سمع هذه الكنية من الرجل .. (أم مؤمل)

هل هي أمه؟! أم إنها زوجة هذا الرجل الطيب؟

لا.. إنها حتمًا زوجة هذا الرجل، فهو ليس فعلًا " مؤمل " حتى تكون هذه المرأة أمه!!

فتحت المرأة باب الغرفة بهدوء ثم دخلت، نظر إليها الشاب وقد شعر بأن قلبه سيخرج من صدره!

ما أشد حزن وجه هذه المرأة وما أكثر عطفها؟ هذا ما شعر به الشاب حين التقت عيناه بعيني تلك الانسانة.. قال في نفسه :

- ما أجمل أن تكون هذه المرأة هي " أمي" في الحقيقة!!

ثم أدار بصره نحو الرجل الذي جلس بجانبه.. وتكلم مع نفسه ثانية :

- وما أجمل أن يكون هذا الانسان الطيب هو أبي حقًا!

قام أحمد من مكانه متجهًا نحو زوجته وهو يقول لها :

- سلّمي على" مؤمل" يا أم مؤمل!

دُهشت المرأة وبنظرات سريعة أرسلتها نحو زوجها قالت :

- هل إسمهُ مؤمل يا أحمد ؟

إبتسم زوجها قائلًا :

- لا يا زوجتي.. بل أنا من أسميته كذلك، إلى حين وصولنا لمعرفة اسمه الحقيقي.

ثم أمال برأسه نحو زوجته وهو يهمس إليها :

- الحادث جعله فاقدًا للذاكرة!

سأل مؤمل وما زالت الحيرة باديةً على ملامحه :

- ولكن يا عم.. ألم تعثر على شيء ما في ملابسي يجعلني أعرف بعضًا من حقيقتي ؟

قال أحمد هازًا رأسه :

- نعم.. لقد عثرت على شيء واحد لا غيره!

قال مؤمل بلهفة :

- وما هو يا عم.. أسعفني!؟

وقبل أن يجيب أحمد أسرعت زوجته إلى القول :

- إنها صورة لفتاة محجبة ذات وجه نوراني!

ثم مدّت يدها تحت حافة الوسادة وأخرجت تلك الصورة، مدَّ مؤمل يده ليأخذ الصورة منها ، وقد لاحظ كلا الزوجين ارتجاف أناملهُ وهو يُمسك بالصورة!

أغمض عينيه بعد أن أطال النظر إلى تلك الملامح الملائكية، حاول أن يتذكر أي شيء عنها.. لكنه لم يُفلح!

ردد مع نفسه : من تكون يا ترى؟!

2

مضت ستة أشهر على وجود مؤمل في بيت الحاج أحمد.. وفي إحدى الأمسيات دخل أحمد مكتبته الكبيرة والمليئة بمختلف أنواع الكتب والمجلات العلمية والثقافية، فوجد مؤمل قد جلس في إحدى زواياها والكتب تحيط به من كل جانب!

قال وقد سرَّه منظر مؤمل وسط تلك الكتب والمجلات :

-لماذا تفترش الأرض يا صاحبي؟ ألا تعجبك هذه الطاولة المستديرة وهذه الكراسي؟! هل تريدني أن أغيرها لك؟ صدقني فقط أشر بيدك وستجد كل أثاث هذه المكتبة قد تغير!!

ضحك مؤمل قائلًا :

- أنت من يجب أن يُصدّقني يا أبي.. كل شيء في هذا المنزل جميل بل رائع، وأروع ما فيه أنت وأمي.. وهذه الكتب!

قال أحمد وهو يسحب أحد الكراسي للجلوس عليها :

- أعرف إنك ترتاح كثيرًا عندما تدخل هذه المكتبة لكنني..

صمت أحمد قليلًا كالذي يحاول أن لا يكمل ما أراد التحدث فيه..

قال مؤمل : ماذا تريد أن تقول يا أبه؟

- أريد القول بأنك يجب أن تطّلع على العالم الخارجي؟

- لكني أطّلع عليه من خلال هذه الكتب!

- أبدًا يا مؤمل.. ما قرأته هنا يجب أن تراه هناك.

- وماذا تقصد بـ "هناك" يا أبي؟!

- أقصد عالم الحقيقة.. عالم الواقع! فأنت منذ ستة شهور تقطن هذا المنزل ولم أرك يومًا تحاول الخروج أو التنزه سوى في الحديقة المنزلية ثم تعود لغرفتك!

- أتصدّق يا أبتي لو قلت لك بأنني خائف من مواجهة الواقع؟

- نعم يا ولدي.. أعرف ذلك، وهذا ما دعاني للتحدث معك الآن حول..

- حول ماذا؟

-لماذا لا تعمل يا مؤمل؟

-أعمل! بأي مجال؟ وأنا لا أعرف من عالمي الجديد غير القراءة والمطالعة؟!!

-إعمل ضمن هذا المجال إذن..

-ماذا تقصد يا أبي؟ لم أفهم!

-أنت تعلم إنني أستاذ جامعي في إحدى الجامعات الأهلية .. ولقد تحدثت مع رئيس الجامعة بخصوص توظيفك بدلًا من أمين المكتبة الذي ترك العمل قبل فترة..

- ولكن هل سأجيد هذه الوظيفة؟ وهل سأستطيع مواجهة هذا العالم وأنا لا أعرف عنه شيئًا على الاطلاق؟

ثم ماذا لو طلبوا مني الهوية الشخصية؟ وكيف سيستقبلونني موظفًا لديهم وأنا لا أعرف حتى إسمي؟!

- إن رئيس الجامعة يا ولدي رجل طيب ولديه ثقة كبيرة بي، وأنا قد حدثته عن قصتك ولقد تفاعل الرجل معها كثيرًا ، وأصر أن تأتي معي للجامعة ليتحدث إليك شخصياً.. حتى أنه أبدى استعداده لنشر صورتك في الجرائد وكل الوسائل الإعلامية لمعرفة حقيقتك.. قاطعه مؤمل وقد قام من مكانه :

- لا يا أبي.. أرجوك! لو كنت أريد ذلك لفعلته بنفسي بدون مساعدة ذلك الرجل.. أنا لا أريد هذا الحل مطلقاً! فهناك شعور ينتابني بأنني سأجد أهلي في يوم من الأيام لكن ليس بهذه الطريقة!

- وأنا أيضًا يا ولدي.. لا أفضّل هذا الحل مطلقاً، لكنني فقط عرضت عليك فكرة رئيس الجامعة.

- ومتى يمكن أن التقي به لأستلم بعدها الوظيفة؟

- غداً إن شئت!

قال مؤمل بعد لحظات من الصمت :

- وأنا موافق؟

خرج أحمد من مكتبه وقد إنفتحت أساريره لِما سمعهُ من مؤمل بخصوص حياته الجديدة..

أما مؤمل فقد جلس على أحد الكراسي التي أحاطت بتلك الطاولة المستديرة ومدَّ يده إلى جيبه ليخرج تلك الصورة.. نظر إليها مطولًا ثم تحدث معها قائلًا :

هل سألتقي بكِ عند خروجي إلى ذلك العالم؟

ثم عاد إلى سؤاله المتكرر :

من تكونين يا ترى؟ لطالما سألتكِ هذا السؤال! فأنا لا أعرف من الماضي الذي كنت أعيشه إلا أنتِ!

هل أنتِ أختي؟ أم زوجتي؟ أم مخطوبتي؟

لا أظنكِ أختي.. فقلبي يحدثني بشيء آخر!!

وهنا توقف عن التفكير، فلطالما حاول إجبار نفسه على نسيان أمر هذه الصورة!!

إنه يخشى أن يتعلق قلبه بهذه الفتاة وقد يُصدَم بعد ذلك بأنها إحدى محارمه!! قد تكون أخته أو إبنة أخته أو إبنة أخيه!!

نعم فهو الآن بعد قراءته لأكثر كتب الأستاذ والحاج أحمد صار يميز جيدًا بين الحلال والحرام.. وبين المحذور وغيره.

لذلك كان يمنع نفسه دائمًا من التفكير بتلك الفتاة التي لا يعرف من ماضيه غيرها!

وقبل أن يدُسَّ الصورة في أحد الكتب نظر إليها متحدثًا :

ليتكِ تستطيعين الكلام! لتخبريني عن واقعي الذي كنت أعيشه..

هل كنتُ مؤمنًا عفيفًا.. أم العكس؟

هل كنتُ محبوبًا بين أهلي وجيراني وأصدقائي؟ أم كنتُ منبوذًا نتيجة تصرفاتي؟

هل كنتُ بارًا بوالدَيَّ أم عاقاً لهما؟

هل كان لي عائلة وأخوة يحبونني وأحبهم.. أم كنت وحيداً كما أنا الآن؟

هل كنتُ ملتزماً بتعاليم ربي كالصلاة والصيام والأخلاق الفاضلة.. أم كنتُ بعيدًا عن كل هذا؟!

هل كنتُ إنسانًا صاحب هدف في الحياة؟ أم شخصًا فارغًا وتافهًا؟!

كيف بي لو كنتُ قرينًا للشيطان طوال السنين الماضية من حياتي!!

وعندما شعر بالعجز التام عن معرفة أي شيء عن ذلك الماضي اتجه ببصره نحو النافذة وهو ينظر إلى السماء بعيونٍ تملؤها الدموع..

ناجى الله بكل ألم : رحماك يا رب! رحماك يا الله.. كن معي في كل حين..

ثم صار يردد دعاء أصحاب الكهف (رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا).

3

كان صباحًا يختلف عن كل الصباحات.. فها هو اليوم الذي سيُمارس فيه مؤمل حياةً طبيعيةً كباقي الشباب..

دخل مع الأستاذ أحمد ذلك الصرح الكبير الذي يُعرف بالجامعة!

وما أن حطَّت قدماه على أرضها حتى تساءل مع نفسه :

- هل كنتُ في حياتي الماضية طالبًا جامعيًا؟ هل مارستُ الحياة الجامعية كطالب فيها أم كموظف أم إنني لم أدخلها من قبل أبدًا؟! هل هذه أول مرة أدخل فيها هذا الصرح الكبير؟ الله أعلم!

ومباشرةً ذهب به أحمد إلى رئيس الجامعة وفي الطريق إلى مقر رئاسة الجامعة كان مؤمل ينظر إلى الناس هنا وهناك فهو لأول مرة بعد ذلك الحادث يشاهد أناسًا كثيرين هكذا!!

كان الارتباك والاضطراب باديًا عليه مما حدى بالأستاذ أحمد إلى أن يُسرع الخطى باتجاه مقصده.

وما أن وصلا حتى تم إدخالهما إلى الدكتور رئيس الجامعة، وفعلًا فقد كان ذلك الرجل كما وصفه أحمد لمؤمل!

فقد بدت عليه سيماء الصلاح والوقار والطيبة.. كان ترحابه قويًا جداً مما جعل مؤمل ينظر إلى وظيفته الجديدة بتفاؤلٍ كبير، ومما جعل تفاؤله هذا يزداد أنه إستلم في نفس ذلك اليوم وظيفته كأمين مكتبة الجامعة!

دخل مؤمل المكتبة وهو يردد " وعلى الله فليتوكل المؤمنون" بعد أن حمد الله وشكره على كل هذا التيسير في أموره.

جلس خلف المكتب الذي أعد مخصوصاً لأمين المكتبة..

قضى مؤمل ذلك اليوم - بعد أن تركه أحمد - بين قراءة السجلات الخاصة بمحتويات المكتبة وبين إعارته للكتب التي يطلبها الطلاب الذين ارتادوا المكتبة في ذلك اليوم ..كل هذا كان بمساعدة كبيرة من موظف آخر هو مساعد الأمين .

عاد مؤمل إلى المنزل بعد أن انتهى الدوام الرسمي، وكان بانتظاره أحمد وزوجته، دخل المنزل وألقى التحية بصوتٍ ينم عن الشكر والامتنان لكل ما قاما به من أجل إسعاده..

قال بشيء من المزاح : خلتُك يا أبا مؤمل ستنتظرني حتى أنهي عملي ونعود سوية إلى المنزل، لكن الظاهر إنك أردت إيقاعي بمأزق زحمة الطريق وانتظار السيارات في هذا الوقت المتأخر.

قال أحمد بدهشة :

- ماذا؟ لم توصلك سيارات الجامعة الخاصة بنقل الموظفين!!

- وهل هناك سيارات خاصة بموظفي الجامعة؟

أجاب أحمد مبتسمًا :

- اعذرني يا ولدي.. فعلًا الخطأ خطأي أنا.. كان المفروض أن أطلعك على كل شيء في الجامعة.

في الحقيقة كان الأستاذ أحمد متعمدًا لتركه وحده في طريق العودة فهو يريد أن يجعله أكثر ثقة بنفسه.

قال مؤمل بأدب :

- حسناً يا أبتاه.. أتمنى أن تطلعني على الكثير من الأمور في الجامعة وسيكون ذلك غدًا إن شاء الله.

ثم اتجه بنظره نحو زوجة أحمد قائلًا :

- وأنتِ يا أماه.. ألا تُسعفيني بالغداء، فعصافير بطني لا تزقزق فقط بل أنها صارت تصرخ وتستغيث من الجوع!!

ضحك الثلاثة وأسرعت كريمة لإعداد الطعام لمؤمل ..

ومساءًا وبعد أن انقضى ذلك اليوم بالأحاديث الدافئة والجميلة. دخل مؤمل غرفته لينام.. وهناك هجمت عليه التساؤلات من كل جانب : ماذا سيحدث بالحاج أحمد وزوجته إن تركت المنزل ورحلت؟

ماذا لو وجدت عائلتي الحقيقية؟ هل سيصبران على فراقي؟ بل هل سأصبر أنا على فراقهما؟!

لم يسأل مؤمل قبل اليوم نفسه هذه الأسئلة، أما الآن وبعد أن دخل هذه المرحلة الجديدة في حياته فإن شيئًا ما في قلبه يخبره بأن فراقه لهذه العائلة سيكون قريبًا!

نعم كان يشعر بأن عمله في هذه الوظيفة هو أمر قد دبرهُ الله له حتى يجد حقيقته الضائعة.

استلقى على سريره وتساؤلاته ما زالت تترادف كترادف خِرَز المسبحة التي كانت لا تفارق يده..

هل سيدخل المكتبة يوم غد أحد الطلبة ممن كانت تربطني بهم علاقة في حياتي السابقة؟ ولِمَ لا تكون طالبة؟! فالطالبات اليوم كن أكثر ارتيادًا للمكتبة! هل يمكن أن تكون صاحبة الصورة طالبة في هذه الجامعة؟ ترك الإجابات على تساؤلاته هذه للزمن فهو كفيل بها، رجع إلى مسبحته وصار يردد مع كل خرزة من خرزها : يا الله.. يا الله..

حتى استسلمت عيناه للنوم .

مرَّ أسبوع على تواجد مؤمل في الجامعة.. كان منهمكًا جدًا في عمله فهو يحاول أن ينجز كل ما لديه بصورة جيدة وأمينة..

وفي بعض الأحيان عندما تخلو المكتبة من الطلاب وخاصة في ساعات الحصص والمحاضرات فإنه يستغل هذه الفرصة في قراءة الكتب التي لم تكن موجودة في مكتبة الحاج أحمد..

وبعد أن يكمل قراءة أي كتاب فإنه يتوجه إلى الله تعالى بالشكر، فهو يعتبر تواجده بين الكتب نعمة حقيقية وهبها الله له ليزيد من معلوماته وثقافته وخاصة الثقافة العلمية والتي صار مؤمل يسعى إلى امتلاكها من خلال جميع الوسائل الممكنة كقراءة الكتب والمجلات ومشاهدة التقارير والاستماع إلى المحاضرات.. وهو في نفس الوقت كان سعيدًا جدًا في عمله، حتى أنه كاد ينسى بأنه انسان مجهول الهوية، لولا ما حدث له في ظهيرة ذلك اليوم!!

فبينما كان مؤمل يقرأ في أحد الكتب وهو يجلس خلف مكتبه حتى جاءت إحدى الطالبات وألقت التحية قائلة :

- السلام عليكم.. هل لي باستعارة كتاب عن الكيمياء العضوية؟

رفع مؤمل رأسه صوبها وهو يرد السلام، وما أن شاهدت تلك الفتاة وجهه حتى صرخت ووقعت مغمًا عليها!

تجمهر الطلاب - الذين كانوا في المكتبة - حولها، وظل مؤمل متسمرًا في مكانه كمن وقف على رأسه الطير!

قال أحدهم :ما بها هذه الفتاة.. يا أخ؟

أجابه بارتباك :

-لا أعرف.. صدقني!

صاحت إحدى الفتيات بزميلاتها : هيا لنتعاون ونحملها إلى حيث عيادة الجامعة.

اتصل مؤمل بأحمد وطلب منه الحضور حالًا إلى المكتبة.. جاء أحمد مسرعًا ووجد مؤمل في حال لا يحسد عليها!

قال وقد أرعبه منظر مؤمل :

-ما الذي حدث يا ولدي؟ لِمَ وجهك شاحب هكذا؟!

- أبي أرجوك إذهب إلى عيادة الجامعة وتعرف على الفتاة التي..

-التي ماذا؟

-التي أغمي عليها قبل قليل!

-ماذا؟! بماذا تتكلم يا ولدي؟ لم أفهم شيئًا على الإطلاق!

-صدّقني يا أبتي لا أعرف ماذا أقول؟ لقد وقعت تلك الفتاة مغمًا عليها ما إن رأتني!

قال أحمد وقد بدأ يتفهم الأمر :

-هل من الممكن أن تكون هي نفسها صاحبة الصورة؟

-لا.. لا أبدًا يا أبي ليست هي! إنها فتاة أخرى.. لكنني متأكد من أنها عرفتني!

-حسنًا حسنًا يا مؤمل.. واصل عملك بهدوء، واترك الأمر ليّ.

4

اتجه الأستاذ أحمد إلى عيادة الجامعة وما أن دخل العيادة حتى سمع صوت بكاء .. حاول أن يفهم ما كانت تقوله تلك الفتاة لكنه لم يكن باستطاعته تمييز كلماتها الغريبة!

مشى خطوات متجهًا نحوها.. ولكن ماذا يرى؟!

إنها طالبته ميساء!

ابتعدت الطالبات من حولها وهن يرددن : أستاذ أرجوك.. ميساء.. ميساء!

سألهن بذهول : ولكن ما بها؟!

قالت إحداهن وهي تبكي : إنها على هذه الحالة منذ أن عادت إلى وعيها.. فلقد أغمي عليها في المكتبة!

اقترب منها أحمد محاولًا تهدأتها :

- أرجوكِ يا ابنتي حاولي أن تهدأي لنفهم ما هو الموضوع.. فقد نستطيع مساعدتك!

قالت وقد لطمت وجهها بقوة : أخي خالد.. أخي خالد!

قال أحمد وقد تغيرت ملامحه :

- هل تقصدين أنكِ قد رأيتِ أخاكِ الراحل؟!

تلعثمت الفتاة بالإجابة ثم قالت :

- لا أعرف.. لا أعرف.. فأخي مات قبل ستة أشهر!!

ثم رجعت لتلطم وجهها وتصيح :

- من يكون هذا يا أستاذ .. لا تقل أنه يشبه أخي؟ فلا يمكن أن يكون شبيهًا له لهذه الدرجة! إنه هو.. أخي خالد.. صدقوني!!

تأثر كل من كان في العيادة لذلك الموقف، وكان أحمد أكثر من تأثر لمعرفته بحقيقة الأمر!

وأخيرًا وجد مؤمل أحد أفراد أسرته! هكذا تحدث أحمد مع نفسه وهو يهم بالخروج من الغرفة، التفت نحو ميساء قائلًا :

- أرجو أن تكوني أكثر تماسكًا يا ابنتي، فأنا أعرفكِ طالبة مؤمنة ومهذبة ، وتصرفاتك هذه ستخرجكِ عن طورك!

خجلت ميساء من كلامه، مسحت دموعها واتكأت على ذراع صديقتها لتقوم.. شعرت بالضعف، لكنها واصلت الوقوف على قدميها وهي تقول : اللهم.. قوة..!

رجع أحمد إلى المكتبة حيث وجد مؤمل وقد أسند رأسه وذراعيه إلى المكتب كمن أصابته مصيبة!

قال أحمد :

- ما بك يا مؤمل.. كن قويا يا فتى!

رفع رأسه وهو يقول :

- أبي!! أخبرني بربك.. من تكون هذه الفتاة!؟

لمح مؤمل الدموع في عيني أحمد.. قال الأخير بصوت تخنقه العبرة :

- إنها.. إنها أختك يا خالد!

قال مؤمل وقد أذهلته الإجابة :

- خالد! هل هذا هو اسمي الحقيقي؟!

- نعم يا بُني.. وتلك هي ميساء.. أختك!

- أختي؟! رحماك يا رب! هل.. هل فعلًا ما تقوله؟!

- هكذا أخبرتني هي.. إنها طالبتي ميساء، هنيئًا لك على هذه الأخت، إنها انسانة مؤمنة ووقورة وما حدث لها الآن ليس إلا نتيجة الصدمة التي وقعت لها أثناء رؤيتها لوجه أخيها الذي مات قبل نصف عام!

- هل يعني هذا أن أهلي يعتقدون بأنني الآن من الموتى؟

- نعم وهذا هو سبب عدم بحثهم عنك طوال هذه الفترة.. الظاهر انهم قد اقتنعوا بموتك، ويبدو من كلامها أنهم استلموا جثتك!!

- جثتي! ولكن ماذا تقول يا أبي؟

- هناك اشتباه في الموضوع يا مؤمل.. الله أعلم جثة من هي؟ يبدو أنها كانت مشوهة من جراء الحادث فاعتقدوا إنها لك!

- ولكن هل الأمر هيّن إلى هذه الدرجة؟ لماذا لم يبحثوا أكثر عن حقيقة تلك الجثة!؟

- إصبر يا ولدي وستكشف لنا الأيام كل شيء.

- هل يعني هذا بأنك لم تخبرها بحقيقة وجودي؟!

- لا.. لقد خفت على الفتاة يا ولدي.. فهي رقيقة ولا تتحمل صدمة كهذه! فأي إنسان مهما كان مؤمنًا وقويًا فإنه سينهار ما أن يكتشف بأن عزيزهُ الذي من المفروض أنه قد مات قبل شهور فجأة يرجع إليه حيًّا معافى!!

لا أظن بأن أي أحد مهما كانت قوته وصلابته سيتحمل هذه الفكرة أبدًا..!!

وعند الظهيرة من ذلك اليوم إجتمع الثلاثة على مائدة الطعام.. قالت كريمة بعيونٍ حبلى بالدموع
- هل يعني هذا بأنك ستتركنا يا مؤمل.. اقصد يا خالد!

قال مؤمل وقد توقف عن الطعام :

- إن إسمي "مؤمل" يا أم مؤمل! فخالد هذا كان اسمي في الماضي وقبل أن اتعرف على وجوهكم الطيبة، أما الآن فأنا مُصِر على أن إسمي مؤمل!

حاول أحمد أن يهدأ من روعه قائلًا :

- والآن يا مؤمل .. ما الذي قررت فعلهُ بخصوص أختك ميساء؟

لم ينبس مؤمل ببنت شفة!

أكمل أحمد : هل تعرف يا ولدي بأنه في تلك الفترة التي وجدناك فيها كان قد انتشر في الجامعة خبر وفاة شقيق الطالبة ميساء بحادث سير لكني لم أربط بين موضوع أخيها وبين قصتك رغم الشبه الكبير بينكما!!

لا أعرف ما هي الحكمة في أن الله جعلني أغفل عن هذا الأمر المهم؟!

قال مؤمل هازًا رأسه وهو يؤيد كلام أحمد :

- نعم يا أبتي.. أنا أيضًا أشعر بأن هناك حكمة من كل هذه الأحداث الغريبة.. لذلك سوف لن أكشف لأختي عن هويتي في الوقت الحالي!

قال أحمد مستغربًا :

- ولكن ماذا تقصد بهذا الكلام؟

- أقصد بأنني يجب أن أعرف أكثر عن وضعي السابق؟ فلطالما فكرت مع نفسي بهذا الأمر.. كيف كنت أعيش مع ربي أولًا؟ ومع نفسي ثانيًا ومع مجتمعي ثالثًا؟

إن عرفت كل هذا قد أتوصل عندها للحكمة من إخفاء هويتي كل هذه الفترة؟ فأنا أشعر بأن هناك سر غريب في قصتي!!

5

وفي الصباح من اليوم التالي اتجه مؤمل مع الأستاذ أحمد بسيارته إلى الجامعة وقد قضى أصعب ليلة في حياته بعد ذلك الحادث!

لقد قضى ليلته بالتفكير بما سينصعه هذا اليوم مع ميساء.. وكيف سيلتقي بها ليسألها عن أخيها؟ هل ستصدق بأنه ليس خالد! هل سيجيد الكذب رغم أنه لم يجربه منذ أن وعى على هذه الحياة الجديدة؟ هل سيساعده الله في خطته التي قرر تنفيذها اليوم.. هل.. هل.. هل؟؟؟

صاح أحمد في وجهه : ما بك يا فتى؟ لماذا لا تنزل من السيارة؟ هل تريد البقاء فيها إلى نهاية الدوام!!

- ماذا؟ وهل وصلنا!

- وماذا تنظر أمامك؟

- آه فعلًا.. اعذرني فكري مشغول بعض الشيء.

قال أحمد وهو يقفل أبواب السيارة :

- كان الله في عونك يا ولدي.

اتجه الإثنان كل إلى عمله وهما يفكران بما سيجري في هذا اليوم من أحداث!

دخل مؤمل المكتبة واتجه مباشرة إلى عمله اليومي في تفقد أغراض المكتبة وترتيب اثاثها قبل أن تمتلأ بعد ساعة بالطلاب!

ثم اتجه إلى مكتبه الخاص وقبل الجلوس خلف ذلك المكتب لمح خيال لفتاة تقف بالقرب من الباب ، ارتبك قليلًا فقد تكون هذه أخته جاءت تتأكد من وجوده! لكن الوقت ما زال مبكرًا على دخول الطلبة؟ هل تريد إستغلال عدم وجود الطلاب لتتحدث مع شبيه أخيها الراحل؟!

قطع على نفسه سلسلة الأسئلة التي لا تنتهي، قرر الإتجاه نحو الباب بعد أن رأى أن وقوفها قد طال هناك.. وما أن وصل حتى تيقن من أنها أخته ميساء!

قال بصوتٍ مرتجف : تفضلي.. أختي.. هل من خدمة؟

نظرت إليه بعيون اتعبها السهر والبكاء، قالت متوسلة :

- أرجوك أخبرني! هل أنت أخي خالد؟

حاول مؤمل أن يمسك مشاعره قبل أن تفضحه دموعه، قال بأدب :

- أنا لا أعرف شخصًا بهذا الاسم من قبل! أرجوكِ تفضلي لنتكلم قليلًا فوقوفنا هنا غير لائق!

اتجهت ميساء نحو الداخل وقد بدى الخوف والاضطراب واضحين على ملامحها..

قالت وهي تهم بالجلوس على أحد الكراسي :

- هل تصدق بأنني أول من دخل الجامعة لهذا اليوم!

لم أجد أحدًا قد دخل قبلي غير عُمال الخدمة! لقد انتظرت مجيئك منذ الصباح الباكر فقط لاتأكد هل أنا في حلم أم حقيقة!

لم أنم ليلة أمس صدقني يا خالد!

قال مؤمل وهو يهم بالجلوس : أرجوكِ .. اسمي مؤمل!

قالت ودموعها قد عادت للهطول مجددًا :

- مستحيل أن يكون الشبه بينكما هكذا! حتى في الصوت؟

- لكن من يكون خالد يا ترى؟ وأين هو الآن؟

قالت وقد أُسقط في يدها :

- أنه أخي.. لقد مات منذ أشهر..

- وكيف مات؟

- حادث سيارة، اتصل بنا موظف الطب العدلي وأخبرنا بأنهم وجدوا جثته محروقة داخل السيارة التي انفجرت أثناء وقوعها من أعلى الجبل في جوٍ ماطر!

قام مؤمل من مكانه.. وهو يحاول أن يمنع ميساء من رؤية دموعه التي صارت تتطافر من عينيه رغمًا عنه!

قال وقد أعرض بوجهه عنها :

- أنا آسف جدًا.. فلقد جددتُ عليكِ مصابكِ بأخيك!

- لا أبدًا.. لا تعتذر .. لكن هل تعرف شيء؟

- كنت أشعر دائمًا في قرارة نفسي بأن خالد لم يمت، وبأنني سأراه يومًا ما وأتكلم معه كما أتكلم معك الآن!

قال وهو ما يزال يعرض بوجهه عنها وقد اصطنع أنه يبحث عن أحد الكتب بين الرفوف :

- وهل كانت علاقتكِ به جيدة؟ يعني هل كان أخوكِ محبوبًا إلى هذه الدرجة بحيث إنكِ لا تُصدقين خبر موته؟!

صمتت ميساء قليلًا، أدار وجهه نحوها ليقرأ الجواب في تعابير وجهها الملائكي..

واخيرًا قالت بعد حسرةٍ طويلة :

- سامحهُ الله كان قاسيًا جدًا، معنا جميعا!

كانت هذه الإجابة بمثابة ضربة قاصمة لظهر مؤمل جعلته يوقع الكتاب من يديه، انحنى أرضًا لرفع الكتاب وهو يردد : لا حول ولا قوة إلا بالله!

قامت ميساء من مكانها وهي تقول :

- أظن أنني بدأت أصدق الآن بأنك لست أخي!

وبحركة سريعة التفت مؤمل نحوها وهو يقول :

- وكيف ذلك؟

قالت بشيء من الثقة الممتزجة بالحزن والأسى :

- لم يكن خالد ذاكرًا لله في كلامه أو تصرفاته أبدًا!

لم تلاحظ ميساء التغير الكبير الذي طرأ على ملامح مؤمل، أكملت وقد استعدت للرحيل :

مسبحتك التي في يدك، وجملتك التي رددتها عند رفعك للكتاب عن الأرض، كما أنك شخص تظهر عليه سيماء الصالحين، كل هذه الأمور تجعلني أصدق بأنك لست خالد أبدًا!!

- ولكن هل يمكن أن توضحي أكثر!

- قلت لك يا أخي.. ان خالد كان لا يأتي ذكر " الله" على لسانه فكيف يحمل الآن مسبحة ويردد عبارة لا حول ولا قوة الا بالله؟

- ولكن لماذا لم.. لم يكن ذاكرًا لله؟!

- لأنه كان مُلحدًا..!

قالت جملتها هذه وابتعدت عنه حتى لا يرى دموعها مرة أخرى!

صاح مؤمل خلفها :

- لكن انتظري أرجوكِ ، ما الذي يؤكد كلامك هذا؟ كيف عرفتِ أن أخاكِ كان ملحدًا؟

قالت وقد تعجبت من اهتمامه الشديد :

- كان كثير التشكيك بوجود الخالق، وعندما أحاول أن أدخل معه في نقاش حول وجود الله سبحانه وتعالى كان..

- كان ماذا؟ اكملي!

- كان يضربني ويقسو علي كثيرًا، وأذكر أنه في آخر مرة هدّدني إن فتحتُ معه هذا الموضوع فسيقتلني!

خرجت ميساء من المكتبة وقد تركت مؤمل غارقًا بدموعه،

جلس خلف مكتبه، اخفى وجهه بين كفيه وهو يردد : رحماك يا الله.. العفو.. العفو.. العفو!

في الظهيرة عادت ميساء مع صديقاتها لاستعارة بعض الكتب، قال لها مؤمل وهو يعطيها الكتاب :

- اسمعي يا ميساء تستطيعي منذ الآن أن تعتبريني أخًا لكِ بدل أخيكِ الراحل " رحمه الله" وسأكون لك نِعم العون والسند بعد الله سبحانه وتعالى.

قالت ميساء وقد خفضت رأسها خجلًا :

-اسمح لي أن أسألك أخي مؤمل : هل لديك أخت؟

قال مؤمل مبتسمًا : نعم.. ولماذا تسألين؟

قالت بكل صدق وقد دمعت عيناها :

- هنيئا لأختك على امتلاكها مثل هذا الأخ، أشكرك على كل شيء واعذرني لأني صباحًا قد أثقلتُ عليك بسماع قصتي المؤلمة.. وداعًا.

وقف مؤمل مودعًا لها، في الوقت الذي تمنى لو يمد لها يده ويخبرها بحقيقة أمره ويعتذر منها عن كل ما كان يصدر منه تجاهها في سنوات حياته الماضية.

6

عاد مؤمل إلى المنزل في تلك الظهيرة وقد أخذ الحزن منه كل مأخذ، قالت له كريمة وهي تصب الشاي بعد وجبة الغداء :

- وضعك اليوم يا ولدي ليس على ما يرام!

انتظرت منه أي تعليق على كلامها لكن دون جدوى فصمته ظل مستمرًا.

قال أحمد :

- هل جاءت ميساء إلى المكتبة اليوم؟

قال بحسرة :

- نعم جاءت!

أردف أحمد :

- وهل تأكدت من أنها اختك؟

- نعم تأكدت!

قال أحمد بامتعاض:

- وهل سنبقى نجر الكلمات من فمك جرّا؟!

ابتسم مؤمل ابتسامة شاحبة ثم قال :

- لقد كنت إنسانًا ملحدًا..!

صاح الاثنان بدهشة :

- ماذا؟ مُلحد!

قال وقد استعدَّ لدخول غرفته :

- انظرا.. أولستُ محقّا بحزني وتعاستي؟!

قال أحمد محاولًا مواساته، وقد سحبه من ذراعه ليعيده إلى المائدة :

- لا تيأس يا مؤمل فإنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون!

قال بكلمات متقطعة :

- كنت فضًّا.. قاسي القلب!

قالت كريمة في محاولة لتشجيعه :

-لكنك الآن شخصًا آخر!

قال وقد أطلق العنان لمشاعره :

- انظرا إلى رحمة ربي.. لو تركني أموت في ذلك الحادث، هل تعلمون ما معنى ذلك؟ ذلك يعني خلودي في نار جهنم..!

قال أحمد وقد بدى جادًا في كلامه :

- اتركنا من كل هذا الآن.. المهم هو ماذا ستفعل للتكفير عن ذنوبك الماضية؟

- لا أعرف يا أبتي، فعلًا لا أدري هل سيغفر الله ذنوب الماضي؟!

قالت كريمة وهي ترفع أكواب الشاي :

- ما دمتَ نادمًا على كل ذلك فلقد تحقق أهم شرط من شروط التوبة وهو الندم!

قال أحمد وهو يشد من أزر مؤمل :

- أن الله تعالى يقول في محكم كتابه الكريم : " يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانًا ويُكفِّر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم" وأنت الآن يا ولدي من المؤمنين المتقين الذين أشارت إليهم الآية بإذن الله تعالى.

قام مؤمل من مكانه واتجه إلى غرفته، حينها قال أحمد لزوجته :

- مسكين! حتما أنه الآن يشعر بأن عليه التكفير عن ذنوب إنسان لا يعرفه!

مرت ثلاث أسابيع على اللقاء الذي جرى بين مؤمل وأخته ميساء.. في كل يوم كان ينتظرها تدخل إلى المكتبة، لكن الأيام تمضي ولا يوجد أي أثر لهذه الفتاة إلا في قلب أخيها المشتاق!

كانت عيناه تتجهان نحو الباب بين لحظة وأخرى فلعلها تأتي! هل إنها تيقنت بهذه السرعة بأن أمين المكتبة ليس خالد على الاطلاق!؟

كان مؤمل يتمنى أن يعرف من ميساء كل شيء عن حياته الماضية وخاصة معاملته مع والديه! فبعد أن عرف أنه في الماضي كان إنسانًا لا يؤدي حقًا لله فهو الآن يتمنى معرفة ما مدى تأديته لحقوق الناس؟

كان يعرف في قرارة نفسه ومن خلال ما جاء في الروايات العديدة عن أهل بيت النبوة والعصمة بأن أول الملفات التي يتم فتحها للتحقيق مع المسلم يوم القيامة هو ملف حقوق الناس ثم يتلوه ملف حقوق الله سبحانه وتعالى..

بعبارة أخرى فإن ذنوب الإنسان على نوعين :

ذنوب لها علاقة بالخلق وذنوب لها علاقة بالخالق عز وجل .

وتذكر الروايات بأن الذنوب التي لها علاقة بالناس والخلق تكون أكثر تعقيدًا وتحقيقًا يوم الحساب الأكبر!

كان مؤمل وهو جالس خلف مكتبه في ذلك اليوم يقرأ كتاب " المظالم" للسيد عبد الحسين دستغيب، وقد وجد فيه رواية عن مولى المتقين علي عليه السلام : الذنوب ثلاثة.. ذنب يغتفر حتمًا وذنب لا يغتفر أبدًا وذنب يُرجى غفرانه بفضل الله عز وجل.

ثم أكمل قراءة التعليق الذي وضعه المؤلف حول هذا الحديث الشريف إذ يقول : " ومن الذنوب التي لا يمكن غفرانها هي غمط حقوق الناس وظلم بعضهم لبعض، فعندما يقف الجاني أمام محكمة العدل الإلهي يوم الحساب فإنه يحضر صاحب الحق عليه ويطالبه بذلك".

دمعت عيناه وهو يقرأ هذه الحقائق العظيمة والتي لا ندرك نحن البشر أثرها علينا سواء في هذه الدنيا أو في آخرتنا التي لن تمضِ بسلام حتى يأخذ العادل العظيم لكل ذي حقٍ حقه.

قال في نفسه وقد أسند رأسه ويديه على مكتبه :

- ساعدني يا رب في معرفة حقوق الناس عليَّ.. هل كنت ظالمًا وعاقًا لوالدي؟ هل كنت ظالمًا لأخوتي وأقاربي؟ هل كنت مخادعًا مع أصدقائي وجيراني؟

أين أنتِ يا ميساء لتجيبيني عن كل هذه الأسئلة!

وهنا خطرت له فكرة : لماذا لا أذهب بنفسي لأبحث عنها؟ إلى متى أبقى هكذا سجين قلقي وتساؤلاتي؟

أغلق الكتاب الذي كان بين يديه ودسّهُ في جرار المكتبة ثم رفع جهاز الهاتف واتصل بالحاج أحمد :

- عفوًا أبتي.. هل لي بسؤال؟

- تفضل يا ولدي.. خير إن شاء الله!

- أحتاج عنوان ميساء الدراسي.

أخبره أحمد بالعنوان الكامل لمكان ميساء في تلك الجامعة، ثم أخبر مؤمل أحمدًا بأنه سيتأخر اليوم قليلًا بعد أن قرر لقاء أخته والتحدث معها بعد إنتهاء دوامه الرسمي ظهيرة ذلك اليوم.

وفعلًا وفي تمام الساعة الواحدة اتجه مؤمل إلى مسجد الجامعة لتأدية فريضتي الظهر والعصر، ودعا الله أن يساعده في العثور على ميساء..

ثم اتجه ليبحث عنها، وشعر أنه في بحثه هذا لا يبحث عن أخته فقط بل إنه يبحث عن ماضيه، وعن الحقوق التي يجب أن يؤديها لأصحابها.. لم يكن يفكر كيف سيوجه إليها ما يدور في فكره

من تساؤلات، كان يشعر برباطة الجأش وبقوة خفية في داخله تعود لوجود الله معه وبأنه لن يتركه في شدته هذه أبدًا ما دامت خطواته جميعها تتجه نحو طلب مرضاة الله سبحانه وتعالى.

وصل إلى القاعة التي أرشده إليها أحمد ، كانت ساعة خروج الطلاب بعد انتهاء آخر محاضرة لديهم في ذلك اليوم ،اتجه نحو أحد الطلبة الذين كانوا يقفون عند باب تلك القاعة وألقى التحية ثم سأله :

- هل الطالبة ميساء حضرت اليوم للجامعة؟

قال الطالب : نعم أظنها في الداخل مع باقي زميلاتها.

ظل مؤمل واقفًا في مكانه منتظرًا خروجها، فلاحظت إحدى الفتيات وقوفه بالقرب من باب القاعة ، قالت وهي تتجه نحوه بفضول :

- تفضل يا أخ مؤمل.. هل من خدمة؟

إستغرب مؤمل من معرفة هذه الفتاة لإسمه، فهو لم يرها من قبل!

قال بثقة : أشكركِ أختاه.. أنا بانتظار ميساء.

قالت باستهجان :

- ميساء! وما الذي تريده منها؟

قال مؤمل وقد بدى منزعجًا من فضولها :

- أعذريني لما سأقوله.. لكن ألا ترين بأنك فضولية بعض الشيء!

بدت علامات الغيض والعصبية على ملامحها وهي تستمع إلى كلماته هذه.. قالت وقد قررت الابتعاد عنه.

- لا أعرف ماذا يعجبكم من هذه الفتاة؟!

أثارت هذه الكلمة فضوله هو هذه المرة! والحقيقة إنها أثارت غيرته قبل فضوله! قال وقد حاول استوقافها :

- مهلًا مهلا.. ماذا تقصدين بكلمة " يعجبكم"؟ هل هناك من هو معجب بميساء من الطلاب؟

قالت وقد استهجنت كلامه للمرة الثانية :

- وما دخلك أنت بميساء.. لها معجبين أم لا؟! لا تقل لي بأنك معجب بها أيضًا؟!

قال بعصبية : أيضًا! أرجوكِ أخبريني.. هل هذا يعني أن هناك من الطلبة من يُبدي إعجابه بها؟

قالت وقد تطافرت شرارات الغيرة والحسد من عينيها :

- نعم الجميع معجب بها.. لكن سامر أكثر من يبدي إعجابه لها!

قالت هذه الكلمات وهي تنظر إلى عينيه منتظرة ردة فعله..

قال وهو يبتعد بها عن القاعة :

- هلا أخبرتني من هو سامر؟

قالت وقد حاولت التهرب من الموضوع قليلًا :

- سأخبرك غدًا.. انتظرني صباحًا في المكتبة!

تكلم مع نفسه وهو ينظر إليها وهي تبتعد عنه شيئًا فشيئا :

- كم هو غريب أمر هذه الفتاة! إنها تعرف إسمي وتعرف بأنني أمين المكتبة! حتمًا إنها ترددت إلى المكتبة.. وإلّا كيف عرفتني؟!

قطع سلسلة تساؤلاته صوت أخته ميساء :

-السلام عليكم يا أخي!

قال وقد عادت الإشراقة إلى وجهه :

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.. كيف أنتِ يا أخية؟

- بخير والحمد لله.. وأنت يا مؤمل كيف حالك؟

- بخير.. انتظرتُ زيارتكِ للمكتبة خلال ثلاثة أسابيع دون جدوى

- نعم.. صحيح.

- ألم تشتاقي لرؤية أخيكِ؟

- أخي!

أوجعت هذه الكلمة التي نطق بها مؤمل قلب ميساء كثيرًا..

لاحظ الألم واضحًا على ملامحها، وقد خفضت رأسها أرضًا في محاولة لإخفاء ألمها ودموعها.

لم يستطع مؤمل فعل شيء حيالها، كان يتمنى أن يكفكف لها دموعها بنفسه ويصرخ بأعلى صوته ليعلن لها وللعالم أجمع بأنه ما زال حيًّا!

7

قال لها أخيرًا بعد أن لاحظ نظرات الفضول والاستغراب من الطلبة :

- لا أظن أن المكان أصبح مناسبًا لإتمام الحديث يا ميساء.. وخاصة أنه ما زال لدي ما أقوله لكِ، فهل يمكنكِ مرافقتي إلى نادي الجامعة؟

قالت بثقة :

- اعذرني يا مؤمل.. فأنا لا أرتاد هذه الأماكن إلا للضرورة القصوى .

شعر بالخجل والفخر معًا، فشعوره بالخجل كان نابعًا من إحساسه بالمسؤولية تجاه أخته فكيف يأخذها إلى مكان قد يأتي بالسمعة السيئة لها خاصة إن كانت برفقة شاب غريب كما هو الظاهر!

أما شعوره بالفخر فكان لِما رأى في أخته الوحيدة من حياء وعفة تمنعانها من إرتياد أماكن غير لائقة بالفتيات الملتزمات.

قال لها بعد صمتٍ قليل :

- ولكني أريد محادثتك بخصوص..

- بخصوص ماذا؟

- بخصوص خالد.

- ولكن ما الذي تريد أن تقوله بخصوص أخي رحمه الله؟!

- أتمنى أن أعرف طبيعة علاقته مع الناس.. هل كان ظالمًا لهم؟ أم كان مسالمًا طيبا؟

- ولكن عجيب أمرك يا مؤمل! فما الذي يشدك هكذا لمعرفة ماضي أخي؟!

قال وهو يخفي دموعه :

- منذ أن تحدثنا عنه في المرة الأخيرة وخياله لا يريد مفارقتي.. في كل لحظة يتراءى أمامي وكأنه يقول لي : حقوق الله والناس قد أثقلت ظهري!

تفاجأت ميساء من هذا الكلام وشعرت بصدق مؤمل فقالت بلهفة : وماذا نفعل برأيك؟

شجعه تفاعلها هذا على المواصلة قائلا :

- أنتِ فقط أخبريني بحقيقة كل شيء والباقي اتركيه علي! أصدقيني القول يا ميساء .. هل كان خالد ظالمًا للناس؟ وهل فعلًا كانت للناس عليه حقوق لم يكن يؤديها إليهم؟!

أجابت ميساء وهي تنظر للماضي القريب :

- نعم.. وأول هؤلاء الناس أبي وأمي .

أردفت ولم تكن تعلم بأن كلماتها كانت تنزل كطعن السكين في قلب مؤمل :

- لقد كان خالد - سامحه الله - لا يحترم والدينا ولا يؤدي لهما حقًا.. حتى أن أبي كان يدعو عليه كثيرًا وفي بعض الأحيان كان يطرده من المنزل، فيضطر حينها للنوم عند بعض أصدقائه.

أما أمي المسكينة فكانت تدعو له بالهداية والعودة إلى طريق الله.. رغم أنه كان يقسو عليها ويهينها في أغلب الأحيان!

صُعِق مؤمل لسماع هذه الحقائق عن ماضيه الأسود، تساءل بكلماتٍ متقطعة ترتجف في لسانه :

- يقسو عليها! يهينها!

- نعم يا مؤمل.. فكلما كانت تتكلم معه حول الصلاة أو ترك أصدقاء السوء كان لا يجد وسيلة لإسكاتها إلا إهانتها بأبشع الكلمات! ولذلك كان أبي يطرده من المنزل، ويدعو عليه بالموت والهلاك.. وللأسف فقد استجاب الله دعاء أبي ولم يستجب دعاء أمي المسكينة التي كانت ما تفتأ تدعو له بالهداية والصلاح.

قال مؤمل في نفسه بعد أن خنقته غصة الألم والحسرة: بالعكس يا ميساء.. ليتك تعلمين بأن الله استجاب دعوة الأم المسكينة، ليتك تعلمين بأن الذي يقف أمامكِ الآن هو نفسه ذلك الأخ الظالم الذي تتحدثين عنه!

قطعت ميساء على مؤمل سلسلة أمنياته هذه بصوتها الشجي وهي تقول :

- لقد تأخر الوقت كثيرًا يا مؤمل.. وحتمًا أن أمي الآن قلقة عليَّ، أستميحك عذرًا ، وأرجو أن لا تقصر بالدعاء لأخي المرحوم فأنا على يقين بأنه الآن بحاجة إلى دعاء إنسان مؤمن مثلك وإلا لما تراءى لك طيفه بهذا الشكل!

قال لها مؤمل بعد أن تأكد بأن الوقت قد تأخر فعلًا :

- أرجو أن توصلي سلامي للوالدة.. قبّليها في جبينها - نيابة عن خالد - وأخبريها بأنه محتاج إلى دعاءها وغفرانها، وبأن الله لن يغفر له حتى تغفر هي له كل ما اقترفها بحقها، وكذلك أوصلي أحر السلام وأصدق القبلات للوالد وقولي له نفس الشيء، فصدقيني يا ميساء لن يرتاح خالد ما دام والداك غير راضيين عنه.

قالت ميساء وهي متعجبة من كل هذا الاهتمام بقضية أخيها :

- سأوصل سلامك يا مؤمل.. ودمت لوالديك عزًّا وفخرًا، هنيئًا لهما بهذا الابن البار.

وبينما بدأت ميساء بالابتعاد وهي تتجه نحو باب الجامعة للخروج قال مؤمل بصوت كئيب :

- بل قولي الابن العاق!

وبعد أن تأكد مؤمل من خروج اخته من الجامعة، جلس على إحدى مصطبات الحديقة ساندًا ذراعيه على ركبتيه وقد ضم وجهه بين راحتيه، وأطلق العنان لدموعه التي تساقطت صرعى تحت قوة الألم والحسرة والندامة.

وبعد ليلة عصيبة قضاها مؤمل بالدعاء والتضرع إلى الله بالمغفرة والعفو.. اتجه صباحًا إلى الجامعة وما أن دخل المكتبة حتى تذكر تلك الفتاة الفضولية التي التقى بها يوم أمس بالقرب من شعبة أخته ميساء، قال في نفسه : هل ستأتي هذه الفتاة اليوم كما أخبرتني؟

ولم تمضِ إلا ساعة حتى دخلت تلك الفتاة المكتبة واتجهت نحو مؤمل الذي كان مشغولًا بقراءة أحد الكتب، قالت :

- صباح الخير!

فأجابها بعد أن رفع رأسه :

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته .

تحدثت بغنج ودلال قائلة :

- ألا تقل لي تفضلي بالجلوس؟!

ردَّ عليها بأدب:

- بلى بلى تفضلي!

قالت بعد صمت قليل :

- سألتني يوم أمس عن ميساء وما علاقتها بسامر.. صح؟!

- نعم صحيح..

- لن أخبرك إلا حينما تخبرني أنت عن طبيعة علاقتك بميساء!

- أنها أختي.

- لا تضحك علي بهذه التوافه.. هل أنت معجب بها؟!

- لا أعرف لماذا لا تريدين تصديقي يا أخت... عفوًا لم أتعرف على اسمك؟

أجابت بسرعة :

- اسمي غادة!

- نعم يا أخت غادة صدقيني أن الآنسة ميساء هي أختي لذلك أنا الآن ألحُّ عليكِ لمعرفة حقيقة ما قلته يوم أمس عن الشاب سامر؟

- حسنًا إنه يحبها وأرسل مجموعة من الفتيات للتحدث معها، لكنها رفضت!

- رفضت ماذا؟ العلاقة أم الخطبة؟

- الاثنين معا!

- ألا تعرفين السبب؟

- لا.. لا أعرف.

- عفوًا مؤمل.. هل لي بمعرفة رقم هاتفك؟

- وبماذا يهمك رقم هاتفي؟

- لا أعرف فقد أحتاجه يومًا ما!

قال وقد عرف طبيعة هذه الفتاة وميولاتها الشيطانية :

- حسنًا سأعطيك إياه لاحقا! والآن هل أخبرتني كيف يمكن لي أن أتعرف على سامر؟

لوت غادة شفتيها بانزعاج وهي تتكلم مع نفسها :

- أنه يستخدمني كوسيلة للتقرب إلى ميساء ليس أكثر، وإن يكن! سأكون شريكته في هذه اللعبة لأعرف نهايتها المجهولة!

قال مؤمل وقد عرف بفطنته ما يدور في نفسها:

- هل ستساعدينني في ذلك أم أتجه لشخص آخر؟

قالت بخبث :

- تعال معي الآن لأعرفك عليه.

وما كان منه إلا مرافقتها إلى حيث سامر، أخذته إلى نادي الجامعة وأشارت إلى مجموعة من الفتيات وقد التفن حول شاب أخرق تبدو على وجهه ملامح الأنوثة أكثر من الرجولة!!

قالت بسخرية :

- أنه هناك.. ذاك الذي يضحك بصوتٍ عال!

قال وقد تطافرت شرارات الغضب من عينيه :

- سبحان الله! يلهو مع فتيات الشيطان ثم عندما يقرر الزواج يتجه نحو العفيفات الملتزمات!!

دهشت غادة من منطق مؤمل في تحليل هذا الموقف!

قالت وقد أخذت حسرة طويلة :

- ليس سامر من يفعل هذا الأمر بل أكثر الشباب للأسف!

خرج مؤمل من النادي بعد أن أزعجه صوت الغناء والمشاهد المؤسفة لشباب وفتيات باعوا أنفسهم للشيطان بسهولة.

قالت وهي تحاول أن تبقى معه أكثر فترة ممكنة :

- هل يعني هذا إنك ترفض العلاقات العاطفية؟

أجابها بثقة : أرفضها جملةً وتفصيلا!

وقفت فجأة فالتفتَ نحوها وهو يقول : هل حدث شيء؟

قالت بحزن وقد لاح اليأس على وجهها :

- يجب أن أبتعد عنك فلا جدوى من "حب من طرف واحد"!

إحمرَّ لون وجهه لصراحتها، قال وهو يطأطأ رأسه أرضًا :

- أعتذر لأني خيبت ظنكِ، وداعًا أختاه.

أكمل طريقه نحو المكتبة وهو يتساءل مع نفسه : أنا أؤمن بأن كل ما يمر بنا هو لحكمة قد نجهلها وقد تظهر لنا لاحقًا، اتمنى لو أعرف ما هي الحكمة من تعلق هذه الفتاة بي بهذا الشكل الغريب؟!

الظاهر إنها تراقبني منذ أول يوم حطت به قدماي أرض الجامعة!!

وصل إلى المكتبة وكانت خالية من الطلاب وضع رأسه على المكتب الذي أمامه وصار يفكر في أمر غادة.. قال أخيرًا : قد يكون هذا اختبار من الله لي، ليرى هل أتبع طريق الهوى والشيطان أم أبقى متمسكًا بمبادئي وأخلاقي؟

لم يكن مؤمل يعلم أن هناك حكمة أخرى من دخول غادة في حياته فجأة، فمن أين له أن يعلم بأن هذه الفتاة ستكون عن قريب سببًا في كشف حقيقته الكاملة لأهله!

8

مضت الأيام والأسابيع طويلة على مؤمل وهو ينتظر قدوم اللحظة التي يتمكن فيها من رؤية والديه وبقية أفراد عائلته .. كان الزمن يسير كأفعى رُبِطت بأثقال وسلاسل وهي تسير على الأحجار والصخور!

خلال هذه الفترة كانت غادة تتردد على المكتبة وتتحين الفرص للتحدث معه في حين أنه لم يكن يُظهِر لها أي علامة من علامات الارتياح!

أما ميساء فلقد كانت تتردد هي الأخرى للمكتبة كلما دفعها الشوق والحنين لرؤية وجه أخيها الراحل.

كانت غادة ومن خلال مراقبتها المستمرة لمؤمل تلاحظ تردد ميساء على ذلك المكان دون حاجة لديها، فهي قد تدخل لتُسلّم على مؤمل وتخرج!

وللغيرة والحسد الذين كانت تكنهما هذه الفتاة لميساء ، وكذلك لمشاعر الإعجاب التي كانت تُظهرها لمؤمل فإنها قررت أن توقع بينهما وبشتى الطرق!

ففي إحدى المرات وبينما كان ذلك الفتى سامر يحاول التقرب إلى ميساء، اتجهت غادة مسرعة نحو المكتبة لتخبر مؤمل بما رأت فلقد حسبت أن هذه فرصتها الذهبية!

دخلت المكتبة مسرعة ومن دون أي مقدمات اتجهت نحو مؤمل وهي تقول :

- تعال معي يا مؤمل فالأمر لا يحتمل التأجيل!

قام مؤمل من مكانه فزعًا بعد أن ظن بأن أخته قد أصابها مكروه، قال بتوتر :

- هل أصابها شيء ؟ أخبريني ما بها ميساء؟

أجابت بمكر :

- لا لن يصبها شيء ، هيا معي لتراها مع من تتحدث؟

قال مؤمل وقد استعاد شيئًا من هدوءه :

- مع سامر.. صحيح؟

- إمضِ معي يا مؤمل لترى بعينك!

خرج مؤمل معها بعد أن أخبر مساعده بأنه لن يتأخر إلا بضع دقائق، إنطلق الإثنان نحو المكان الذي يجمع ميساء بسامر ، وهناك رأى مؤمل ما لم يحتمل رؤيته..

ميساء تحاول المرور وسامر يعترض طريقها بوقاحة!

اتجه راكضًا نحوهما وبدون وعي دفع ميساء جانبًا ليسحب سامر من قميصه ويعطيه ضربة في صدره توقعه أرضًا!

وقبل أن يقوم سامر من الأرض جلس مؤمل على صدره ليشبعه لكمات وهو يصرخ : لماذا تقف في طريقها أيها الأحمق؟ ما الذي تريده منها؟ هيا أجب!

كانت ميساء تراقب هذا المنظر وقد هالها ما شاهدته!

هل نفض أخوها خالد تراب قبره وجاء ليخلصها من ذلك الوحش سامر؟!

إنه خالد! لا يمكن أن تصدق غير هذه الحقيقة!

تذكرت في تلك اللحظات كيف كان خالد يجلس على صدر أخيه الأصغر ضياء ليشبعه لكمات عندما يتشاجران كما يفعل الآن مع سامر بالضبط!

قطعت هذه الذكريات صرخة أطلقتها غادة وهي تنادي :

- أرجوك يا مؤمل كفى! سيموت الرجل بين يديك!

قام مؤمل من على صدر سامر وهو يقول بعصبية :

- هذا ليس رجلًا! إنه من أشباه الرجال الذين ليس لديهم غيرة ولا شرف!

ثم أدار بصره نحو ميساء التي كانت تقف بالمقربة منه وقد غسلت الدموع وجهها الملائكي.. قال بشيء من الهدوء :

- وأنتِ يا ميساء.. أليس من حقي أن أعتب عليكِ لأنكِ لم تخبريني بإساءة هذا القذر ..؟!

ثم نظر بحدّة لذلك الفتى الذي ما يزال مطروحًا على الأرض والدماء تجري من أنفه وفمه :

- أما أنت فإن رأيتك مرة أخرى تحاول المساس بأختي فانتظر مني ما هو أقوى! لن أجعلك تنام ليلتها في المشفى، لا أبدًا..! لأنني سأجعلك تتوسد تراب قبرك.

أعاد مؤمل ترتيب ملابسه، ثم اتجه نحو المكتبة تاركًا الثلاثة خلفه ..كلٌ في همه وحيرته.

تصنعت غادة " اللاأدرية" في كل ما جرى، في حين كان في داخلها الف سؤال وسؤال، وميساء المسكينة كانت حائرة أيضًا فهل تستمر في التصديق بأن مؤمل ليس نفسه خالد!

أما سامر فقد اتجه إليه بعض الطلاب محاولين إيقافه على قدميه، بينما قامت غادة بتقديم قطعة منديل إليه ليمسح بها جراحه في محاولة منها للتكفير عن خطأها ،أخذ المنديل وهو ينظر إلى مؤمل ويتمتم: سأنال منك أيها الوغد!

في صباح اليوم التالي اتجهت غادة إلى المكتبة لتلتقي بمؤمل لعله يشرح لها أسباب فعلته ظهيرة يوم أمس!

في طريقها إلى المكتبة دارت في بالها الكثير من الأسئلة التي كانت تتمنى أن تطرحها شخصيًا على مؤمل : ما الذي يشده هكذا للدفاع عن ميساء وعن سمعتها؟ لماذا قال لسامر (إن رأيتك مرة أخرى تحاول المساس بأختي...)؟

هل فعلًا أن مؤمل لا ينظر لميساء إلا كأنها أخته ؟ وهل أنه سيتصرف نفس الشيء مع أي فتاة في الجامعة إن تعرضت لنفس موقف ميساء ظهيرة أمس؟!!

وصلت المكتبة، وما أن دخلت حتى ألقت التحية ثم بادرت مؤمل بالسؤال :

- هل لي أن أعرف ما الذي دفعك أن تفعل بسامر ما فعلته؟!

تحدث مع نفسه : إلهي متى تخلصني من فضول هذه الفتاة؟

قال وهو ما يزال مُكبًّا على الكتابة في أحد سجلات المكتبة :

- كان ذلك قليلًا بحقه.

- هل تعرف بأنه اليوم لم يأتِ للدوام؟

- وما شأني به؟

- أظنك آذيته كثيرًا.. فضرباتك كانت موجعة!

قال بثقة بعد أن رفع رأسه نحوها :

- هذا مصير كل من يحاول مضايقة أختي.

قالت بعد أن شعرت بأنه لن يبوح لها بأي شيء حول علاقته بميساء :

- والآن يا مؤمل.. اتركنا مما حدث البارحة، هل لي أن أطلب منك ذلك الكتاب الذي كنت تقرأ فيه الأسبوع الماضي؟

- وما كان اسمه؟

- لا أتذكر بالضبط أعتقد (كلما يحتاجه الشباب) أو عنوان شبيه بهذا المضمون.

- آه نعم تذكرت.. إنه من الكتب الشخصية التي أحضرها معي من المنزل، إن كنتِ تريدينه جلبته لكِ يوم غد.

قالت بشيء من البرود :

- نعم.. أرجو ذلك.

وبعد أن ودّعته وخرجت من المكتبة تساءل مع نفسه :

- عجبًا! لأول مرة تطلب مني كتابًا دينيًا لتقرأه! أتمنى لها الهداية من كل قلبي.

في اليوم التالي أحضر مؤمل الكتاب معه وما كان من غادة إلا أن تأتي على وجه السرعة لتأخذ الكتاب وترحل، وصلت إلى البيت وما أن استلقت على السرير لتستريح حتى مدَّت يدها إلى حقيبتها اليدوية، أخرجت الكتاب وبدأت تقلب صفحاته.. ولكن ماذا ترى؟!

إنها صورة لفتاة!! من تكون يا ترى؟ وهل يدري مؤمل بوجود هذه الصورة في هذا الكتاب؟

قضت غادة ليلتها تلك بالتفكير في أمر الصورة مما جعلها تغض النظر عن فكرة قراءة ولو صفحة واحدة من ذلك الكتاب!

إنها مشغولة الآن في معرفة من تكون صاحبة هذه الصورة، لقد حاولت أن تقترب أكثر من مؤمل بطلبها للكتاب فهي تريد استمالة قلبه بأي طريقة وظنت بأنها ستنجح إن أقنعته بحبها للقراءة واهتمامها بالهواية التي يحبها هو!

لكنها الآن تشعر بابتعاده أكثر عنها، فبعد قصة ميساء جاءت قصة هذه الفتاة صاحبة الصورة!

تساءلت مع نفسها : إن كانت لمؤمل حبيبة جميلة كهذه فما شأنه بميساء؟!

فكرت أن تسأل مؤمل شخصيًا عن صاحبة الصورة لكن فجأة.. خطرت في بالها فكرة!

تحدثت مع نفسها مرة أخرى : سأجعل هذه الصورة الورقة الرابحة التي من خلالها يمكنني إنهاء أي علاقة بين ميساء ومؤمل!

لم تنتظر غادة عدة أيام لتنفيذ خطتها بل مباشرة وفي اليوم التالي اتجهت نحو ميساء وهناك طلبت منها أن تخصص لها من وقتها بضع دقائق وما كان من الأخيرة إلا أن تلبي الدعوة برحابة صدر..

أخرجت غادة الصورة من حقيبتها ومدّت يدها لميساء لتعطيها إياها وهي تقول :

- انظري يا عزيزتي.. إن مؤمل أمين المكتبة مغرم بصاحبة هذه الصورة..

صُدمت ميساء وهي تنظر إلى صورة " دعاء " إبنة خالتها..!

9

صدمت ميساء وهي تنظر إلى صورة " دعاء " إبنة خالتها وخطيبة أخيها الراحل..!

قالت بعد صمت قليل :

- ما الذي أتى بهذه الصورة عندكِ يا غادة؟ وما علاقة مؤمل بها؟

قالت غادة بكل ثقة :

- لقد وجدتها في كتابهِ! وقررتُ أن أطلعكِ على أمرها لتعرفي حقيقة مشاعر ذلك الشاب.

شعرت ميساء بالدوار، أعادت السؤال مرة أخرى وهي تمسك بيد غادة وترتجف :

- أقسم عليكِ يا غادة أن تخبريني الحقيقة.. أين وجدتِ هذه الصورة؟

قالت غادة بعد أن شعرت بأن هناك سر خطير في الموضوع :

- أقسم بالله على صحة كلامي يا ميساء، لقد طلبتُ الكتاب من مؤمل لأقرأ فيه فقال إنه كتابه الشخصي وقد أحضره لي من منزله، وما أن فتحتُ الكتاب حتى وجدتُ هذه الصورة بين طيّاته!

قامت ميساء من مكانها وهي تحمل الصورة وتقول :

- هل أستطيع أخذ الصورة معي؟ وسأعيدها لكِ بعد يوم أو يومين.

قالت غادة بارتباك :

- لكن بشرط.

- وما هو؟

- أن لا يعلم مؤمل بأمرها.. بتاتًا!

- أعدكِ بذلك.

عادت ميساء إلى المنزل وفي فكرها تدور عشرات الأسئلة : من أين أتى مؤمل بصورة دعاء ؟ وهل تعلم دعاء شيئًا عن هذه الصورة؟ ومنذ متى فقدتها؟ وما حقيقة علاقة مؤمل بدعاء؟!

وفي طريق العودة أخرجت هاتفها المحمول واتصلت بدعاء وطلبت منها الحضور إلى منزلهم بأسرع وقت.

في عصر ذلك اليوم كانت دعاء مع والدتها عندهم، اصطحبت ميساء ابنة خالتها إلى غرفتها بعد أن تركت كل من والدتها وخالتها تتحدثان في أمور الحياة.

وما أن دخلت دعاء غرفة ميساء حتى وقع بصرها على صورتها التي وضعتها ميساء على السرير، قالت بدهشة وهي تأخذ الصورة بيدين مرتجفتين:

- هل وجدتيها أخيرًا؟!

قالت ميساء بدهشة أكبر :

- وأين كانت هذه الصورة يا ترى؟!

أجابت دعاء بعد حسرة طويلة :

- حتمًا إنكِ عثرتي عليها بين أغراضه وحاجياته.

- ولكن هل أنتِ من أعطيتي خالد صورتكِ هذه؟

- نعم أنا.

- متى كان ذلك؟

- قبل الحادث بيومين.

ثم أكملت والدموع تملأ مقلتيها :

في زيارته الأخيرة لي طلب مني هذه الصورة لأنني أظهر فيها بكامل حجابي، قال بأنه سيحملها معه أينما ذهب لأنه لم يعد يحتمل فراقي!

لذلك يا ميساء كل ظني بأن صورتي هذه قد احترقت في ذلك الحادث ولم يبق لها أي أثر، لكن الظاهر إنه لم يكن يحملها معه في تلك الساعة! لم تخبريني الآن .. أين وجدتي صورتي؟!

قالت ميساء بصوت مرتجف :

- عند ذلك الشاب الذي حدّثتكِ عنه قبل فترة ..مؤمل!

قالت دعاء وقد صارت ترتجف هي الأخرى :

- ولكن الصورة كانت عند خالد ،أقسم بذلك يا ميساء!

جلست ميساء على ركبتيها بعد أن شعرت إن قواها ضعفت ولم تعد تتحمل ما تسمع.. قالت أخيرًا :

- خالد حي يا دعاء!

قالت دعاء ولم تفهم قصد ميساء :

- طبعًا سيبقى حي في قلوبنا إلى الأبد!

قامت إليها ميساء وعانقتها قائلة :

- بل هو حيٌّ يُرزق إلى الآن.. إنَّ أخي لم يمت في ذلك الحادث!

نظرت دعاء إلى وجه ميساء قائلة :

- ولكن ما الذي تقوليه!

قالت ميساء بثقة :

- لقد عرفتُ ذلك الآن.. إن أخي حي!

لذلك أرسلتُ في طلبكِ لأتأكد.. وها أنا أؤكد لكِ وأقسم بخالق السموات بأن خالد حي!

أخذت نوبة الصدمة تصيطر على دعاء هي الأخرى، قالت بارتباك كبير :

- أرجوكِ يا ميساء كلامكِ هذا يخيفني، هل أصبتِ بالهذيان؟

- لا.. لا يا عزيزتي ثقي بأني أعي كل كلمة أقولها، كما أؤكد لكِ بأن صورتكِ هذه كانت معه كما وعدكِ ولم يتخلى عنها في ذلك اليوم!

- ولكن كيف لم تحترق رغم بشاعة الحادث؟

- لأنه لم يحترق أصلًا ولم يمت!

- والجثة التي أوريناها التراب؟

- حتمًا أنها جثة شخص آخر.. أنا متأكدة.

قالت دعاء وقد بدت غير مصدقة لما يحدث :

- وأين هو الآن؟

أجابتها ميساء :

- إنه..

صمتت قليلًا ثم أكملت :

- لا أعرف حقيقةً أين هو الآن بالضبط، لكنكِ إن أتيتِ معي غدًا فسترينه!

قالت دعاء بتوتر :

- إلى أين؟

- إلى الجامعة.

سألتها بتعجب :

- ولكن ماذا يفعل في الجامعة؟

- يعمل أمينًا لمكتبتها!

- هل تقصدين إنه نفس ذلك الشاب المتدين.. مؤمل!!

- نعم.. إنه هو بعينه! لكنه يخفي حقيقته، وقد كشف الله لنا تلك الحقيقة عن طريق هذه الصورة!

ثم بدأت تسرد لها ما حدث في الجامعة يوم هجم على سامر وأشبعه ضربًا وهو ينادي : لن أسمح لك المساس بأختي!!

كما أخبرتها عن غادة وكيف جلبت لها الصورة التي وجدتها في كتابه!

قالت دعاء وهي تعانق ابنة خالتها :

- هنيئا لكم بسلامته يا حبيبتي ،ستفرح خالتي وكذلك عمي بعودته بعد كل هذه الأشهر.

قالت ميساء بقلق :

- وأنتِ يا دعاء ألن تفرحي بعودته ؟؟

قالت دعاء بتردد :

- تعلمين أنني كنت غير مقتنعة بخطوبتنا منذ البداية، لأن أفكاري تختلف تمامًا عن أفكار خالد، فما الذي يضمن لي بأنه قد تغير فعلًا؟!!

أكملت والعبرة تخنقها : لقد فرض خالد نفسه فرضًا في تلك الخطبة بعد أن كان يجبر خالتي على تكرار موضوع الخطبة رغم رفضنا له أكثر من ثلاث مرات!!

أتذكر في المرة الأخيرة صارت تبكي وتتوسل بوالدتي، ثم أخبرتها إن نحن لم نوافق على خالد فستنتهي علاقتها بها إلى الأبد!

حينها وافقتُ على مَضض لأني خشيتُ أن أهدم العلاقة بين الأختين إن لم أوافق فيصبح هناك قطع رحم لا سمح الله، وتعرفين كم أن والدتي تحب خالتي أم خالد فهي ليس لديها أخت غيرها في هذه الحياة .

أمسكت ميساء بيدها وهي تقول :

- أنا أعرف كل هذا يا حبيبتي.. لكن خالد أصبح إنسانًا محترمًا.. صدقيني! انا متأكدة من إنك ستحبيه كثيرًا بل وتتمنين أن يتم الزواج في أقرب فرصة ممكنة!

نظرت إليها دعاء نظرة باهتة وحزينة وكأنها تقول لها : لم أحبه في السابق رغم أنني أعرفه منذ صغري فكيف سأحبه الآن فجأة!

لم تعد دعاء مع أمها في تلك الليلة، إذ قررت البقاء عند بيت خالتها لترافق ميساء صباحًا إلى الجامعة ولتلتقي هناك بإبن خالتها وخطيبها خالد.

كانت تلك الليلة والساعات من أطول اللحظات بالنسبة للإثنتين - الأخت والخطيبة - لم تكن ميساء تعرف ما يجري في خلد دعاء التي سهرت الليل كله تفكر كيف ستفتح مع خالد موضوع الانفصال!!

في السابق كانت تخشى على علاقة والدتها وخالتها، أما الآن وبعد أن عرفت من ميساء بأن خطيبها نادم على كل تصرفاته السابقة حتى أنه من شدة ندمه أنكر حقيقته، قالت في نفسها وهي تشعر بالراحة بعض الشيء :

إن كان قد تغير فعلًا فهذا يعني أنه سيتفهم طبيعة مشاعري الحقيقية تجاهه وسيقنع والدته بقبول مسألة الانفصال عن بعضنا دون مشاكل، حتمًا سوف يقتنع فهو لن يرضَ لنفسه أن يرتبط بإنسانة لا تريده!

ثم رددت مع نفسها بشيء من القلق :

ماذا إن لم يقتنع بكل هذا ورفض الانفصال؟!

10

انطلقت الفتاتان في صباح اليوم التالي إلى الجامعة، وقبل أن يبدأ جدول المحاضرات لميساء اتجهت مع ابنة خالتها إلى المكتبة..

في الطريق إلى هناك أخذت ميساء وعدًا من دعاء على أن تكون متماسكة عند رؤيتها لخالد وأن لا تخبره بأنهم عرفوا الحقيقة حتى يعترف لهم بنفسه!

دخلت ميساء المكتبة وكانت دعاء تسير خلفها بخطواتٍ بطيئة، أشارت ميساء إلى أحد الكراسي التي تحيط بطاولة كبيرة وقالت لدعاء :

- اذهبي أنتِ واجلسي هناك..

قالت دعاء بشيء من الخوف :

- ولكن أين هو الآن؟ هل يمكنني أن أراه؟

قالت ميساء وهي تخفض صوتها أكثر :

- أنه هناك، ذاك الذي يجلس خلف المكتب وأمامه سجل كبير يكتب فيه..

أدارت دعاء وجهها نحوه ثم شهقت!

أسرعت ميساء لتضع كفها على فم دعاء وهي تقول :

- ألم تعطيني وعدًا بأن تكوني متماسكة؟

أمسكت دعاء بذراع ميساء وهي تقول بصوت مرتجف:

- أرجوكِ.. خذيني إلى أقرب كرسي، فقدماي لا تساعداننني على الوقوف!

أخذتها ميساء وأجلستها وهي تردد : اللهم.. قوة!

أسندت دعاء ذراعها إلى الطاولة التي أمامها واستسلمت للبكاء، بينما اتجهت ميساء بخطوات ثابتة نحو مؤمل..

قالت بصوت مهذب:

- السلام على أخي العزيز..

رفع مؤمل رأسه وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة هادئة وهو يقول :

- السلام عليكِ أيتها الأخت الغالية.

قالت بعد هُنيهة من الصمت :

- لقد أرادت إبنة خالتي إستعارة أحد الكتب عن علم الفيزياء، ولأنها من جامعة أخرى والمكان غريب عليها بعض الشيء فلقد رافقتها إلى المكتبة، سأتركها هنا وأعود إلى محاضرتي التي لم يبقَ على موعدها إلا خمس دقائق، فأرجو أن تساعدها بالبحث عن الكتاب المطلوب.

قال مؤمل وقد شعر بالارتباك بعض الشيء :

- ولكن أين هي؟

قالت ميساء وهي تشير إلى مكانها :

- إنها هناك!

وعندما نظر إليها الإثنان كانت ما تزال تسند رأسها إلى ذراعها على تلك الطاولة!

قال مؤمل متعجبًا: ولكن ما بها؟

قالت ميساء بشيء من الجدية :

- لقد أصيبت بالصدمة عندما رأتك لأول وهلة!

ثم أردفت بابتسامة مصطنعة : فلا تنسَ يا مؤمل إنك شبيه أخي خالد!

وفي محاولة منها لتأدية دور الممثلة بجدارة قالت :

- اعذرها أرجوك ، لقد كانت علاقتها بخالد أكثر من كونها إبنة خالته.

قال بدهشة وقد شعر بتراكض دقات قلبه : وماذا تقصدين؟

أجابت دون أن تنتبه إلى ارتباكه :

- لقد كانت خطيبته وامرأته شرعًا، فلقد تم عقد القِران بينهما قبل الحادث بشهر تقريبًا.

سأل مؤمل بإحراج :

- هل لي أن أعرف اسمها؟

تحدثت ميساء مع نفسها قبل أن تجيب :

- آه لو أعرف لماذا تحاول إنكار حقيقتك، ولماذا تخفي معرفتك بأهلك!

قالت ببرود : دعاء.. اسمها دعاء.

شعر بشيء من الهدوء والسكينة عند سماعه لهذا الاسم، فما أجمل إسمها وما أشد ارتباط هذا الاسم بالله تعالى!

عندها توجه بالدعاء إلى الله أن يجعله أكثر تماسكًا ثم إتجه بنظرهِ نحو تلك الفتاة، قال في نفسه : هل ممكن أن تكون هي صاحبة الصورة؟

أدار وجهه نحو ميساء فوجدها قد رحلت!

نطق بكلمات متقطعة : لماذا تتركيني يا ميساء بهذا الموقف؟

اتجه نحوها بخطواتٍ ثقيلة وكأن قدماه قد قُيّدت بسلاسلٍ من حديد.. وعندما أصبح قريبًا منها ناداها بارتباك : دعاء!

لم ترفع رأسها، لكن صوت بكائها انقطع!

قال بأدب : هل لي أن أتحدث معكِ؟

رفعت رأسها ونظرت إليه بعيونٍ دامعة :

- خالد.. أنت خالد!

لم يستطع مؤمل تحمل الصدمة، إنها هي.. صاحبة الصورة!

تحدث مع نفسه : إذن هي خطيبتي..

أطال النظر إليها فوجدها شُبه مُنهارة من أثر الصدمة ، نظرت إليه بتوسل قائلة :

- أرجوك لا تكذب عليّ، أتوسل إليك أن تخبرني بالحقيقة!

أُسقط في يده فلطالما انتظر هذه اللحظة ..

قال أخيرًا :

- نعم أنا هو، لكن ..

صمت قليلًا ليهيئها لسماع الخبر!!

قالت بارتباك :

- لكن ماذا ؟ تحدث أرجوك..

- لقد فقدت ذاكرتي بسبب الحادث ، وأقسم لكِ بأنني الآن لا أذكر من الماضي شيئًا!!

ملامحه الحزينة وعبرته التي اختنقت في صدره والتي بانت على نبرة صوته جعلت دعاء تصدق كل كلمة نطق بها ..

لم تعرف بماذا تتكلم، فبأي كلمات يمكن أن تواسي خطيبها بعد أن أصبحت هي نفسها غريبة بالنسبة له؟!

لقد عرفت الآن لماذا أخفى حقيقته عن أخته!

قامت من مكانها وقد تهيأت للرحيل قائلة :

- لا فائدة من وجودي هنا إذن، أنا بالنسبة إليك إنسانة غريبة!

أشار إليها بالعودة للجلوس وقد سحب أحد الكراسي ليجلس بالقرب منها، قال بأدب :

- لكنكِ خطيبتي بل وامرأتي شرعًا، أليس كذلك؟! فكيف تتخلين عني في هذه الظروف التي أمر بها؟!

خجلت من كلامه وقررت البقاء وهي تنظر إليه من خلف دموعها ..

قال وقد شعر بالارتياح لموافقتها على البقاء :

- لطالما عشت مع صورتكِ ليالٍ جميلة، كنت أتحدث معكِ دون أن أعرفكِ، وكنت أشعر بالأمان عندما أنظر إلى وجهك، وكم من مرة سألتكِ عن حقيقتي الغامضة لكنكِ لم تجيبي على سؤالي!

قالت وقد ابتسمت رغم دموعها :

- لكني كنت مجرد صورة فكيف سأجيبك؟

ابتسم هو الآخر قائلًا :

- نعم

وهذا ما كان يؤلمني.. مجرد صورة!

كانت تنظر إليه بدهشة فلقد بدى فعلًا إنسانًا آخر..

كان خالد في السابق من أولئك الشباب الذين يحلقون شعر الشارب واللحية ولا يتركون لهما أثرًا ، أما اليوم فقد بدى أكثر رجولة بهما ؛ أصبح أشبه ما يكون بأولئك الممثلين أصحاب الوجوه النورانية الذين يختارونهم لتأدية أدوارًا دينية!

كما إنه كان يلبس خاتمًا من العقيق، ويمسك بيده مسبحة!!

خفضت رأسها محاولة أن تخفي عنه ضحكة خجولة جعلته يسأل باستغراب :

- أراكِ تطيلين النظر إليّ ثم تضحكين!

قالت باستحياء :

- ألن تنزعج إن أخبرتك بالحقيقة؟

قال بلهفة : لا لن أنزعج.. هيا أخبريني!

أجابت وهي تترقب ردة فعله من كلامها :

- كنتَ في السابق تنظر إلى (الرجال المُلتحين والذين يتختمون باليمين ويحملون المسبحة أينما ذهبوا كما وتظهر سيماء السجود في جباههم) على أنهم أناس منافقين متلبسين بالدين!!

أكملت وسط دهشته : أما اليوم فأراك صرت تشبههم طبق الأصل، فكيف لا تريد مني أن أضحك على هذه المفارقة الغريبة!

قال بألم بدى واضحًا جدًا على ملامحه :

- الظاهر أنني كنت كارهًا للدين أصلًا لذلك كنتُ ناقمًا على كل من تبدو عليه علامات التديُّن!

قالت وهي تحاول مواساته :

- لم تكن وحدك تشعر بهذا الشعور تجاه الدين، بل أكثر شبابنا اليوم للأسف الشديد تراهم ناقمين على الدين بسبب تصرفات بعض من أسموا أنفسهم متدينين!! أولئك الذين حرّموا على الناس أمورًا أحلّوها على أنفسهم، وعقّدوا الحياة بحجة التدين ، بل صاروا يدعون إلى التخلف والجهل وإلى الفتنة والقتل بإسم الدين، في حين أن اسلامنا دين العلم والحياة ودين التسامح والمحبة والسلام.

نظر إليها مؤمل بسعادة وهو يقول :

- الحمد لله الذي وهبني إنسانة واعية ومثقفة مثلكِ يا دعاء، إنني لأفتخر بكِ والله!

فعلًا إن كل ما تحدثتي به الآن كان قد أخبرني به الحاج أحمد سابقًا، وهو أيضًا متألم جدًا بسبب هذه النظرة السوداوية التي انتشرت بين المجتمع عن ديننا الحبيب بسبب أفعال الشيطان وبسبب بعض من تلك النماذج للأسف.

تساءلت بدهشة : ومن هو الحاج أحمد؟

أجابها : إنه الشخص الذي أرسله الله لإنقاذي في تلك الليلة، هل تعلمين شيئًا؟

- ماذا؟

- لم يكن الحاج أحمد منقذًا لجسدي فقط، بل أنقذ جسدي وروحي معًا، روحي التي كانت تعاني الجحود والإنكار للخالق، فأنا اليوم بفضل عِلم وتدين ذلك الرجل الطيب أصبحتُ شخصًا مؤمنًا وواعيًا لكل ما يدور حولي، ولن تنطلي عليّ أفكار الملحدين مرة أخرى، فلقد تسلحت - بفضل الله - بسلاح العلم والمعرفة الحقيقية ومستعد اليوم أن أناقش من يدّعي عدم وجود الخالق، أو يدّعي فساد الدين وأهله.

قالت بتعجب :

- هل حصل كل هذا التغير بغضون ستة أشهر فقط؟!

قال بثقة :

- إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون.

قالت وهي تمسح دموعها :

- ونِعمَ بالله.

- الآن أخبريني .. هل ما زالت ميساء تصدق بأنني لست إلا شخصًا شبيهًا بخالد؟

تلعثمت بالإجابة قليلًا، إنها لا تحب الكذب لكنها في نفس الوقت قطعت عهدًا لميساء أن لا تخبره شيئًا!

قالت أخيرًا :

- أظنها كذلك!

وفي داخلها رددت : أستغفر الله.. إلهي لا أعرف ماذا أفعل فسامحني!

قال وهو يلاحظ تردد الطلبة على المكتبة :

- لقد تأخرت عن عملي، هلّا أعطيتني رقم هاتفكِ المحمول؟

قالت بتهكم :

- ولكن كيف لا يعرف الرجل رقم هاتف امرأته!

أجابها بابتسامة حزينة :

- سؤال وجيه ومؤلم في الوقت نفسه!

حاولت أن تبدد الحزن من قلبه قائلة :

- لا عليك يا خالد، أنا أمزح صدقني!

قال وهو ينظر إلى عينيها مباشرة :

- أتمنى أن لا تناديني بهذا الاسم مرة أخرى.. أرجوكِ!

سألت بدهشة : ولكن.. لماذا؟

- اسمي هو " مؤمل " فخالد كان في الماضي، أنا الآن شخص آخر.

قالت باستغراب :

- هل يعني هذا بأنني لم أعد كما كنتُ في السابق بالنسبة إليك؟

- ماذا تقصدين لم أفهم!

- مشاعرك تجاهي.. أقصد حبك لي و..

قاطعها وقد فهم قصدها :

- لا.. اطمأني!

ثم استجمع قواه وهو يقول بحياء : أنا اليوم أحبكِ أكثر من السابق، خاصة بعد أن اقتربت أفكارنا أكثر.

خفضت رأسها بخجل واستغربت من نفسها هي هذه المرة!! كانت في السابق عندما يصارحها بحبه لها تغضب وتنزعج كثيرًا، اما الآن فما الذي يحدث؟ لماذا لا يوجد شيء من ذلك الشعور؟! قالت بأدب :

- حسنًا.. سأتركك الآن مع عملك وأنتظر أتصالك مساءًا.

ابتسم محاولًا ممازحتها هو هذه المرة بالقول :

- لكن كيف سأتصل؟!! بالله عليكِ.. هل يوجد رجل غيري في هذه الدنيا لا يعرف رقم هاتف امرأته؟!

شعرت بالخجل وهي تقول :

- كيف غفلت عن اعطائك الرقم.. سامحني أرجوك!

قال وهو يخرج هاتفه المحمول من جيبه :

- لا عليكِ.. هيا ردّدي الرقم لأسجله، وسأتصل بعد صلاتي المغرب والعشاء بإذن الله تعالى.

11

مضت الأيام والليالي ومؤمل مستمر بالتعرف أكثر عن ماضيه من خلال الاتصالات التي صارت تتكرر يوميًا بينه وبين خطيبته وإبنة خالته دعاء..

سألها في إحدى المرات :

- أتساءل كيف وافقتي على الارتباط بي في وقت كانت أفكاري تختلف إختلافًا جذريًا عن أفكارك؟!

أجابت دعاء بعد صمتٍ قليل وقد فاجأها سؤاله :

- أخشى أن أخبرك الحقيقة فتنزعج!

تغيرت نبرة صوته قائلًا : ما الذي تخفيه عني يا دعاء ؟

أجابت بحذر :

- كنت غير مقتنعة بك لولا إنك كنت تجبر خالتي على الإلحاح في مسألة الخطبة، حتى أنني في تلك الليلة التي عرفت فيها إنك ما زلت حيًّا كنتُ قد قررت أن أتكلم معك في موضوع الانفصال..

إختنق مؤمل بعبرته وهو يقول :

- ما الذي تنتظرينه إذن.. لماذا لا تطرحي الموضوع؟

قاطعته بالقول وقد سقطت دموعها من غير إرادتها :

- لا تفهمني خطأ أرجوك يا مؤمل!

خلال نطقها بهذه العبارة دخلت والدتها فجأة إلى الغرفة ورأت دموعها وهي تهمس بإسم "مؤمل" وتتوسل إليه أن يفهمها!

أخذت الأم المصدومة الهاتف من يد ابنتها ورمته بقوة على الأرض حتى تحول إلى حطام!

صرخت في وجهها :

- هل هذا جزاء تعب والديكِ ومحبتهم لكِ؟ هل هذا جزاء ثقتهم العمياء بكِ؟ ألم تفكري بسمعة أهلكِ وشرف عائلتكِ؟ ألم تفكري بأن الله يُمهل ولا يُهمل؟! ألم تفكري بأن هناك موت وآخرة وحساب وعقاب؟ هل نسيتي كل هذا؟

ما الذي حصل؟ ومن هذا الذي استطاع أن يضحك على عقلك هكذا؟

ثم كيف تكوّني علاقة مع شاب ولم يمضِ حتى عام واحد على وفاة خطيبك وإبن خالتك؟! إن لم يكن لديك احترام لدينك وأهلك احترمي روح ذلك الشاب على الأقل!! لقد كان مستعد أن يقتل نفسه لأجلك!

بكت الأم وهي تردد : ليت روحي صعدت إلى السماء قبل أن أراكِ تعصين ربك بهذا الشكل، وأنا التي كنت أظنكِ قوية الإيمان والعقيدة!

في تلك اللحظة كانت دعاء تتمنى أيضًا لو أنها ماتت ولا تتزعزع ثقة والدتها بها هكذا!

ثم ماذا تقول لها؟ هل ستصدقها لو أخبرتها بأنها كانت تتحدث مع خالد نفسه!

وهل سيرضى خطيبها أصلًا بأن تبوح بسره؟!

خرجت والدتها من الغرفة وتركتها وسط دموعها وغصتها، قالت وهي تضرب على وجهها بقوة :

- لستُ أنا من تكسر ثقتكم يا أمي! لستُ أنا من يضحك عليها أيًا كان بسهولة، لستُ أنا من تعصي أمر ربها بهذه الوقاحة، لست من فتيات الشيطان يا أمي ، لقد تعبتم على تربيتي ولم أضيع تعبكم هباءًا منثورا..

ليتكِ تعلمين أنني كنتُ أتحدث مع خطيبي وزوجي شرعًا، ليتكِ تعلمين أن خالد لم يمت!

ليتكِ تعلمين أن مؤمل هو نفسه خالد!!

حاول مؤمل أن يتصل بها مِرارًا بعد انقطاع الاتصال في تلك الليلة لكن دون جدوى، استمر الحال ذلك لمدة خمسة أيام!! كانت تتمنى دعاء أن تلتقيه أو تسمع صوته، حتى شعرت بأن قواها قد ضعفت وقطعت عن نفسها الطعام والنوم، لقد كانت تريد أن تخبره بأنها ما عادت تريد الانفصال!

في ذلك الوقت كان مؤمل هو الآخر في دوامة من التفكير.. ماذا أصاب دعاء؟ لماذا انغلق خط هاتفها فجأة؟ هل هذه هي طريقة لتنهي علاقته بها بعد أن أخبرته بمشاعرها تجاهه منذ أول خطوبتهما!؟

ها هي الأيام تمضي وما من خبر عنها، لم تكن لديه القوة الكافية ليذهب إلى ميساء ويسأل عن دعاء، فهو ما زال يتوقع بأن أخته لا تعرف حقيقته!!

صار يدعو الله ليلًا ونهارًا أن يهيئ له من أمرهِ رَشَدا ..

قرر أخيرًا التحدث مع ميساء لكن كيف سيخبرها بالأمر؟ هل ستسامحه أن عرفت بأنه أخفي حقيقته عنها كل هذه الفترة في حين أنه اعترف لدعاء منذ أول لقاء؟

بقى مؤمل في حيرة وقلق ولم يكن لسانه يتوقف عن الدعاء والاستغفار لحظة واحدة حتى أثناء انشغاله بالعمل!

إلى أن جاءت (غادة) في ظهيرة أحد الأيام إلى المكتبة لترجع إليه الكتاب الذي استعارته منه قبل أسابيع..!

قالت بعد إلقاء التحية :

- لقد كان كتابًا رائعًا فعلًا، أعتذر لأنني تأخرت في إرجاعه فلقد أعدت قراءته أكثر من مرة، كما أريد أن أعتذر عن أمرٍ ما..

قال مؤمل باستغراب : خير إن شاء الله!

قالت بخجل :

- هناك صورة لفتاة محجبة وجدتها في الكتاب، ولقد وسوس إليَّ الشيطان أن أعطيها لميساء.. لأوقع بينكما ليس أكثر!

فغر مؤمل فاهه واتسعت حدقتا عينيه وهو يستمع إلى صراحة غادة.. فتح الكتاب فوجد صورة دعاء!!

تذكر حينها أنه قد وضعها في هذا الكتاب عندما كان يقرأ فيه آخر مرة!!

قال بعد أن إتضح له كل شيء : لم تكن وسوسة شيطان يا أختاه، بل كان هذا تدبير إلهي لتعرف أختي كل شيء عن حقيقتي ..تلك الحقيقة التي لم أكن قادرًا على البوح بها!

قالت غادة وقد بدت جادة بكلامها :

- لم أفهم ما قلته ولا أريد أن أفهم لأني بعد أن قرأت هذا الكتاب قررت أن أترك الفضول وأن أترك الكثير من الصفات السلبية التي كنت اتصف بها.

أردفت بعد أن خفضت رأسها خجلًا : كنت أظن بأنني أحببتك يومًا ما، لكني فهمت الآن وبمساعدة هذا الكتاب بأن مشاعري تلك ما هي إلا نزوة جاءت بسبب الفراغ الذي كنت أعيشه وساعدني عدم غضي للبصر على مراقبتك وتتبع خطواتك أينما ذهبت .

خفضت رأسها أكثر وقد جرت دموع الندم على خديها وهي تقول :

- لم أكن صاحبة هدف في هذه الحياة لذلك حاولت إشغال وقتي معك بأي طريقة، أما الآن فلقد عاهدت الله أن أتغير نحو الأفضل.. وأن أعتني بدراستي ومستقبلي أكثر.. وأن التفت إلى ديني وآخرتي قبل فوات الأوان ، وأدعوه سبحانه أن يوفقني في كل ذلك.. استودعك الله يا أخي.

قام مؤمل من مكانه وقد وضع يده على صدره وأحنى رأسه لها بكل احترام ليوَّدعها فلقد بدت غادة فعلًا انسانة أخرى!!

نظر إلى الكتاب الذي أرجعته إليه قائلًا :

- سبحان الله! هذا الكتاب كان سببًا لهداية إنسانة غافلة، وقد صار سببًا رئيسيًا لمعرفة أهلي بحقيقتي!!

إذن لم يكن مجيء دعاء إلى الجامعة مجرد صدفة!

لقد جاءت بها ميساء بعد يوم واحد من اعطائي الكتاب لغادة ..كيف لم التفت إلى هذه النقطة؟!

وعند هذه اللحظة شعر بشوق كبير إلى أخته، إنها الآن تعرف حقيقته لكنها لم تخبره!!

اتجه نحو قاعتها الدراسية علَّه يجدها قبل أن تتهيأ للخروج من الجامعة، نظر إلى ساعته، ما يزال هناك وقت..

عندما وصل وجد أن الأستاذ ما يزال يلقي محاضرته مما اضطره للانتظار ربع ساعة تقريبًا..

وأخيرًا خرج الأستاذ وخرجت ميساء بعد الأستاذ مباشرة للالتحاق بخط السيارات الذي ينطلق في تمام الثانية ظهرًا.

كانت تنظر إلى ساعتها وتحرض صديقاتها على الإسراع .

لم تلاحظ وقوف مؤمل على مقربة منها، قالت إحدى صديقاتها وهي تنظر إليه :

- انظرن يا بنات.. أوليس هذا أمين المكتبة؟ ولكن لماذا ينظر إلى مجموعتنا هكذا؟

اتجهت ميساء نحوه وهي تحدث صديقاتها قائلة : انتظرن قليلًا، ثواني فقط!

وما أن اقتربت منه حتى ألقت التحية :

- السلام عليكم.

ردَّ مؤمل بابتسامةٍ عريضة :

- وعليكم السلام أيتها الأخت المخادعة!

تفاجأت ميساء من كلمات أخيها ولم تعرف بماذا تجيبه، فهل أفشت دعاء سرها!

أكمل والابتسامة ما تزال مرسومة على وجهه :

- يستطعن صديقاتك الذهاب وسأوصلك بنفسي إلى المنزل.

قالت ميساء بدهشة :

- ولكن! ماذا لديك يا أخ مؤمل؟

لمحت الدموع في عينيه وقد تحولت ابتسامته تلك إلى ملامح الحزن والأسى قال وقد تغيرت نبرة صوته :

- أختي الحبيبة ميساء!

صاحت ميساء ولم تصيطر على مشاعرها : خالد!

أخرج منديلًا من جيبه ليمسح دموعه قبل أن يراه أحد وهو يقول :

- بل مؤمل يا ميساء.. فـ " خالد" كان من الماضي!

جاءت إحدى الطالبات لتنادي على ميساء قائلة :

- ماذا حصل يا ميساء؟ هل ستتأخرين أكثر؟

قالت لها بفرح غامر : سيوصلني أخي خالد إلى المنزل.

نظرت إلى أخيها فوجدته خافضًا رأسه كمن ساءه الكلام ، فاستبدلت كلامها بالقول :

- عفوًا.. أقصد أخي مؤمل!

ابتعدت عنها صديقتها وهي تتمتم مع نفسها : لا أعرف ماذا دهاكِ هذه الفترة يا ميساء؟!

جلس مؤمل مع أخته في حديقة الجامعة قُرابة الساعة، وكان أكثر حديثه عن مشاعر الندم جرّاء ما عرفه عن ماضيه المؤلم، ولم ينسَ أن يتكلم لها عن مشاعره تجاه خطيبته وقلقه الشديد بسبب غيابها المفاجئ.

وعدته ميساء أن تتحرى أمر دعاء بنفسها، قال مؤمل وهو ينظر إلى ساعة يده :

-قد تكون أمّنا الآن قلقة عليكِ يا عزيزتي..

قالت ميساء بدهشة : الله! ما أجمل هذه الكلمة التي نطقتها يا أخي.. (أمّنا) ..؟!

أردفت بشيء من الحيرة : لا أعرف كيف ستكون أثر الصدمة عليها حينما تعرف بأنك ما زلت حيا؟!

قال مؤمل وقد قام من مكانه :

- لا تستبقي الأحداث يا ميساء، فكل شيء يأتي في وقته.. هيا لأوصلك يا عزيزتي.

في عصر ذلك اليوم كانت ميساء عند دعاء لتستطلع أمرها خاصة بعد أن لاحظت انغلاق هاتفها فعلًا كما أخبرها مؤمل!

وهناك أخبرتها دعاء بكل ما حصل معها وكيف سمعتها والدتها وهي تهاتف خالد ليلًا!

قالت ميساء بجدية : يجب أن أتحدث معه غدًا ليضع حدًّا لكل ما يحدث، إلى متى يريد أن يستمر في إخفاء حقيقته؟!

قالت دعاء بحزن : لا تلوميه يا ميساء فإن خالد يخشى مواجهة العائلة وخاصة بعد أن علم بقسوته وسوء تصرفاته الماضيه مع جميع أفراد الأسرة!

قالت ميساء وهي تضغط على يد ابنة خالتها :

- يجب أن نساعده ونشجعه على كشف الحقيقة، لندعو الله أن يكون معه في مرحلة حياته القادمة.

12

وأخيرًا قرر مؤمل أن يكشف للجميع عن حقيقته، خاصة بعد أن شعر بحجم المشكلة التي وقعت لابنة خالته وخطيبته دعاء جراء عدم كشفه لهويته الحقيقية أمام العائلة..

كانت كل من ميساء ودعاء على معرفة بالوقت الذي سيأتي به مؤمل إلى منزله بعدما يقارب سنة كاملة على تركه إياه!

أصرت دعاء على أمها في ذلك اليوم أن ترافقها لبيت خالتها بعد أن أقنعتها أنها مشتاقة جدًا لرؤية ميساء!!

بعد وصولهما بنصف ساعة طُرقت باب المنزل..

قام ضياء لفتح الباب وميساء ودعاء تراقبان الموقف، كانت ميساء خائفة على ضياء من أثر الصدمة وهو يفتح الباب، لكنه عاد وكأن شيئًا لم يكن!!

قال لأبيه بصوتٍ عالٍ بعض الشيء :

- أبي هذا رجل يطلب مقابلتك!

تفاجأت الفتاتان وكل منهما صارت تتساءل مع نفسها :

- هل سيخلف خالد بوعده ولا يأتي؟!

وبعد أن خرج أبو خالد لرؤية الضيف عاد للدخول وهو يطلب من زوجته وابنته ارتداء الحجاب!

قالت أم خالد بفضول :

- ولكن ما الذي يحدث؟

أجابها زوجها :

- هذا الرجل يقول بأنه استاذ جامعي وقد جاء هو وزوجته للتحدث معنا بأمر هام، وطلب أن يكون الجميع متواجدين أثناء حديثه!

رددت أم خالد وكذلك أم دعاء : خير إن شاء الله!

بعد عشر دقائق تقريبًا كان الجميع يجلسون مع الأستاذ أحمد وزوجته في غرفة الضيوف، وبحكم ثقافته وتدينه فقد عرف أحمد كيف يبدأ الموضوع معهم إلى أن وصل إلى نقطة الحقيقة!

قال وهو يراقب نظرات العيون :

- وبهذا فلقد كتب الله لولدكم " خالد" عمرًا جديدًا وهو ما يزال حي يرزق!

صاحت أم خالد وقد صارت لا تشعر بمن حولها :

- كنت أشعر بذلك.. نعم، نعم!

اتجهت نحو زوجة أحمد وهي تقبل يديها وتبكي قائلة :

- أين هو الآن؟ هل تغيرت ملامحه؟ هل تأثر كثيرًا بذلك الحادث؟! هل ما يزال ولدي في منزلكم ..هل ..

قاطعتها كريمة قائلة :

- لا يا أم خالد، إنه ليس في منزلنا الآن!

صاحت الأم المشتاقة :

- أين يمكن أن يكون إذن؟ لا تقولي لي إنه مسافر!

ابتسمت كريمة والدموع تغسل وجهها، وضعت يدها تحت ذراع أم خالد لتساعدها على النهوض وهي تقول : بل إنه ينتظر إذنًا بالدخول، لقد تركناه جالسًا في السيارة عند باب المنزل..

سقطت أم خالد مغشيًّا عليها، وركض ضياء متلهفًا لرؤية أخيه الأكبر وليتأكد بنفسه من صحة ما يقوله هذا الرجل هو وزوجته، نظر ضياء فإذا بالسيارة تقف بالقرب من باب المنزل فعلًا ، وكان هناك شابًا يجلس فيها!

ركض نحو السيارة وهو يصرخ : خالد.. خالد.. أخي.. حبيبي!

سمع مؤمل صوت أخيه فنزل من السيارة للقاءه بلهفة وترقب ، وما أن رآه ضياء حتى وقع أرضًا وهو يصرخ : آه قدماي .. إنها لا تعينني على النهوض .. هل أنت حقا خالد ؟!

ركض مؤمل صوب ضياء ورفعه عن الأرض وهو يساعده على المشي ، اتجه به نحو المنزل..

في هذه الأثناء خرج الأستاذ أحمد وأبو خالد، أسرع أحمد صوب مؤمل ليأخذ منه ضياء والذي كان في حال يرثى لها ..بينما وقف الأب ينظر إلى ولده العائد بعد طول غياب ودموعه تشرح لوعة الفراق وألم الاشتياق.. قال وهو يفتح ذراعيه :

- ولدي الحبيب.. الحمد لله على سلامتك!

اتجه مؤمل نحوه وحاول أن يبادله نفس المشاعر، احتضنه بقوة ثم ردد : أبي.. سامحني أرجوك!

ثم انحنى على يديه يقبلها ويقول: لقد كنت قاسي القلب وعاقًا لك كل تلك الفترة، أنا الآن إنسانًا آخر وسأكون لك نِعمَ الولد بإذن الله.. أنت فقط سامحني!

لم يُصدّق والده ما رأته عيناه وسمعته أذناه! فمن هذا الذي يعتذر؟ ومن هذا الذي يُقبّل يدي والده ويبكي.. خالد؟!

أدخله المنزل واتجه به مباشرة إلى والدته التي أفاقت من غيبوبتها توًّا ، قالت وهي تحتضنه وتبكي :

- الحمد لله الذي منَّ علينا بعودتك يا حبيب أمك.

صارت تمرر أناملها الرقيقة على وجهه وهي تقول :

- الحمد لله.. لم يصبك مكروه، ملامحك سليمة وعافيتك تمام، الشكر لله.. الشكر لله.

إعتذر منها هي أيضًا وهو يقول :

- لا أتذكر شيئًا مما كنت أفعله في هذا المنزل! لكن ميساء ودعاء أخبرانني بكل شيء للأسف، وأعدكم بأني سأعوضكم عن كل تلك الأيام القاسية التي عشتموها معي بأيامٍ جميلة وسعيدة منذ اليوم.

قال والده بدهشة :

- وهل كانت كل من ميساء ودعاء تعلمان بأمرك؟!

قال مؤمل :

- نعم يا والدي.. لكني منعتهما من البوح إلى أن يهيء لي الله تعالى الفرصة المناسبة لزيارتكم بنفسي، وأحمده سبحانه أن منَّ عليَّ بلقائكم والنظر إلى وجوهكم الطيبة بعد أن خشيت أن لا نلتقي أبدا!

تبادل أبو خالد نظرات الاستغراب مع زوجته، إن ولدهما يقول عبارات غريبة بالنسبة لهما إذ لم يسمعانها منه في الماضي بتاتا!! فما الذي حدث خلال هذا العام حتى عاد إليهم ولدهم العاق إنسانًا صالحًا وخلوقًا بل ومؤمنًا بالله تعالى يحمده كثيرًا بعد أن كان كافرًا به؟!

في وسط هذه الدهشة والتساؤلات ضربت أم دعاء على كتف ابنتها وهي تصرخ في وجهها :

- كيف تخفين عني هكذا أمر يا فتاة؟!

إبتسمت دعاء و طأطأت برأسها خجلًا وهي تقول :

- لقد أمرني هو بذلك .. وطاعة الزوج واجبة إن لم تكن فيها معصية للخالق كما علمتِني أنتِ يا أماه.. أليس كذلك؟

قالت الأم وقد اتسعت حدقتا عينيها :

- وهل يعني هذا إنكِ كنتِ تتحدثين مع خالد في تلك الليلة التي..

لم تكمل أم دعاء كلامها فقد قاطعها مؤمل بالقول :

- نعم يا خالتي كانت تتحدث معي، أقسم بالله على ذلك.

قامت خالته من مكانها وقبلته في جبينه وسط دموعها وهي تقول :

- اعذرني يا ولدي، صدقني لم أقصد إبعادكما عن بعضكما كل هذه الفترة.. لكنني توقعت شيئًا آخر!

قال مؤمل وهو يرمق خطيبته بنظرات الاشتياق ويوجه كلامه لأمها :

- لا عليكِ يا خالتي..الحمد لله الذي أعاد التئام الشمل من جديد.

قال الأب بلهفة :

- ستكون الفرحة فرحتين ..الفرحة بعودتك والفرحة بزواجك ، يجب إن نحدد موعدًا قريبًا للزواج مادامت دعاء ووالدتها موجودتين الآن ، كما سأتصل بوالدها حالًا لأزف إليه خبر عودتك وأتفق معه على قرب موعد الزواج.

شعرت دعاء بالسعادة الغامرة ولقد منعها الخجل عن رفع رأسها! أما مؤمل فلقد خاطب والده بالقول :

- أرجو التريث يا أبي!

رفعت دعاء رأسها وهي تنظر لمؤمل بقلق ..ما الذي يريد قوله؟

بدأت الملامح تتغير وتحولت الابتسامات والضحكات إلى نظرات حائرة يتبادل بها الجميع فيما بينهم!

كانوا ينتظرون من مؤمل أن يتكلم.. قال أخيرًا :

- لقد علمت من دعاء قبل فترة وعن طريق الاتصال الأخير أنها كانت شبه مجبرة على تلك الخطبة، لذلك أنا لا أريد الاستعجال في أمر الزواج مطلقًا فأنا وهي بحاجة إلى أن نفهم بعضنا أكثر!

تفاجأ الجميع من كلام مؤمل وتحولوا بأنظارهم نحو دعاء التي غسلت الدموع وجهها، فشعروا أن مؤمل على حق وبأن الحديث عن الزواج ما زال مبكرا!!

شعر مؤمل بحجم الإحراج الذي تعرضت له دعاء بعد كل تلك النظرات والهمسات بين الجالسين، قال بأدب :

- أرجوكم لا تلوموها، من حق الفتاة أن تختار من ترتاح لصفاته وأفكاره، أنا في السابق كنت شخصًا أنانيًا متكبرًا حاولت أن امتلك دعاء بأي طريقة حتى لو كان في ذلك إجبارها، ولأن أخلاقها عالية فهي لم تصارحني بحقيقة الأمر بعد عودتي لها في هذه الفترة ،إذ راعت بذلك

فقداني للذاكرة وحاجتي الماسة إلى وجودها قربي ..نعم لم تصارحني إلا بعد أن طرحتُ أنا بنفسي ذلك السؤال (كيف وافقتي على خطوبتنا في حينها رغم اختلاف الأفكار!!) حينها فقط روت لي ما حدث عن أيام الماضي.

ثم عاتب والدتها بالقول :

- هل من السهولة أن يسلم الأهل ابنتهم وفلذة اكبادهم إلى شاب أخرق لا هم له في الحياة إلا الأكل والنوم واللهو؟!

اكمل وهو ينظر إلى خطيبته وهي تغرق بدموعها :

- فتاة مؤمنة وصائنة لنفسها ومهذبة وعفيفة مثل دعاء يجب أن لا يرتبط بها إلا من كان مقاربًا لها فكريًا وروحيًا وإلا سنحكم عليها بالسجن المؤبد مدى الحياة!

طأطأت أمه المسكينة رأسها وهي تخاطبه بألم :

- أنا من أجبرت أختي وإبنتها على الموافقة، فلقد رفضوا الخطبة منذ البداية، لكني هددتهم بقطع صلة الرحم بيننا إلى الأبد!

رفع مؤمل رأس أمه بحنان وهو يقول :

- ارفعي رأسك يا أماه فما دمتُ حيًّا أُرزَق سيبقى رأسك مرفوعًا بإذن الله ، وما اقترفته في الماضي من أخطاء ما زالت آثارها باقية فأعلمي بأنني سأحاول بما أوتيت من قوة أن أصححها جميعها .

أكمل وهو ينظر لخطيبته :

وتبقى مسألة الزواج مسألة شخصية سنحدّد - أنا ودعاء - خلال فترة الخطوبة هذه ما إذا كنا مستحقين لبعضنا أم لا.

سحبت الأم الحنون رأس ولدها برفق وقبّلته في جبينه وهي تقول :

- حماك الله يا ولدي وحفظك من كل مكروه ، قلبي راضٍ عنك ما دمتَ نادمًا على الماضي ، وأنا على يقين بأن والدك راضٍ عنك الآن أيضًا..

أكملت وهي تشدُّ على يديه :

ومن رضى عنه والداه فسيرضى عنه الله وسيختم له بالسعادة.

13

مضى أسبوع كامل على تواجد مؤمل في بيته الجديد القديم!

كان الحنين والشوق يجره إلى التفكير بالحاج أحمد وزوجته كريمة..

فهو يتمنى أن يذهب لرؤيتهما لولا انه بحاجة أيضًا إلى البقاء أكثر مع أسرته الحقيقية.. حيث كان يرى لهفة والديه وأخوته ميساء وضياء على الجلوس معه والتحدث إليه.

كان ضياء يرى خالد وقد صار ملتزمًا بصلاته وعباداته من قراءة القرآن وكتب الأدعية والزيارات!

أما باقي أوقاته فكان يقضيها بين والديه يقبل أياديهما ويسمعهما الكلمات الرقيقة والدافئة.

كانت تلك الأسرة الصغيرة التي تتكون من الأب والأم والأبناء الثلاثة تعيش أيامها تلك كالحلم الجميل..

الشيء الوحيد الذي كان يعكر على مؤمل صفو سعادته هو سماعه بين فترة وأخرى اسم (خالد) رغم توسلاته ومحاولاته المستمرة لتعويد الجميع على ترك هذا الاسم وحثهم على مناداته باسمه الجديد (مؤمل) .

وفي إحدى الجلسات التي جمعت مؤمل مع أخويه وخطيبته التي كانت في زيارة لهم قال ضياء متساءًلا :

- هل تسمح يا خالد.. عفوًا يا مؤمل! هل تسمح أن أسألك شيئًا عن ماضيك؟!

إبتسم مؤمل وهو يقول :

- رغم أنني لا أتذكر منه شيئًا لكنني متلهف جدًا لسماع سؤالك.. تفضل يا حبيبي.

- لقد كنت تقول في الماضي بأنه لا وجود للخالق، وبأننا إما أن نكون خُلقنا صدفة أو إن الطبيعة هي التي كانت السبب في وجودنا ووجود جميع الكائنات في هذا الكون!

قام مؤمل من مكانه دون إرادته ، أشار إلى صدره وهو يقول بعصبية :

- أنا؟ أنا كنت أقول ذلك!

خفض ضياء رأسه وكذلك فعلت كل من ميساء ودعاء، أعاد سؤاله وقد تغيرت نبرة صوته :

- لماذا الصمت؟ هل فعلًا هذا كان معتقدي؟

قالت ميساء وهي تحاول تهدأته :

- لكنني أخبرتك بهذا منذ أن التقينا بعد الحادث.. أتذكر؟

عاد إلى الجلوس وقد أسند ذراعه على الأريكة وأخفى وجهه بكفه اليمنى كمن أصابه اليأس!

قالت دعاء وقد نزلت دموعها مواسية لخطيبها :

- كان ذلك في الماضي.. أنت الآن مؤمل المثقف الذي يستطيع أن يدافع عن وجود الخالق بكل عقيدة وإيمان.. ألم تخبرني بذلك في لقاءنا الأول؟

نظر إليها مؤمل وشعر بارتياح كبير لكلامها، ثم نظر إلى أخيه الأصغر وهو يقول :

- أولًا أشكرك أيها الحبيب لأنك كنت صريحًا معي في سؤالك، رغم أن كلامك ذلك بالنسبة لي كلام غير منطقي حتى وإن كنتُ أنا من نطق به سابقا!

إعلم يا أخي أن من يقرأ ويبحث في الكثير من الحقائق العلمية سيتأكد من وجود الله تعالى، أما الذي يبقى يستمع لآراء بعض من إدعى الثقافة دون أن يقرأ ويبحث بنفسه فسيقع فريسة سهلة لتلك الآراء الفارغة والتي لا تستند إلى أي دليل علمي كما يحصل للكثير من شبابنا اليوم للأسف الشديد.

أن كلامي في السابق يا ضياء كان نتيجة الجهل الذي كنت فيه، أما الآن فأتمنى أن تفتح لي قلبك وفكرك معًا لتفهم كل كلمة سأقولها ليس فقط لتثبت في داخلك عقيدة التوحيد ووجود الله الواحد الأحد بل لتصبح لديك معرفة بكيفية الرد على مدّعي الإلحاد.

إن إثبات وجود الخالق يستند إلى حقائق لا تعد ولا تحصى، ففي كل يوم بل في كل ساعة يكتشف العالم حقيقة جديدة تثبت وجود الله سبحانه وتعالى.

وأنا الآن سأخبرك بحقيقة واحدة، ولك أنت أن تبحث بنفسك عن حقائق أخرى تحيط بك في كل زمان ومكان!

قال ضياء بفضول :

- وما هي هذه الحقيقة؟

- إنها.. أنت.

سأل ضياء باستغراب :

- ماذا؟ أنا؟

- نعم إنها أنت وأنا وميساء ودعاء والناس جميعًا..

قال ضياء مبتسمًا :

- هل تصدق.. لم أفهم شيئًا!

قال مؤمل بثقة :

- إن تلك الحقيقة هي (حقيقة خلق الإنسان) يا ضياء..

ألم تسمع بهذا البيت الشعري الرائع والذي ينسب للإمام علي عليه السلام :

أتحسب أنك جرمٌ صغير ... وفيك انطوى العالم الأكبر؟!

هزَّ ضياء رأسه وهو يقول :

- نعم سمعت هذا البيت سابقًا.. لكني لم أفهم معناه.

قال مؤمل وهو يربت على كتف أخيه :

- ستفهم اليوم معناه بإذن الله تعالى..

كاد ضياء أن يدخل في نقاش أطول مع أخيه الأكبر لولا أن صوت والدته أتى من المطبخ معلنًا عن اكتمال إعداد وجبة الغداء..

قال مؤمل موجهًا كلامه لميساء ودعاء :

- حسنًا بإمكانكما الآن مساعدة والدتي في وضع المائدة..

قاطعته ميساء :

- نتمنى أن نكون معكم في نقاشاكما المهم هذا.

خاطبها أخاها قائلًا :

- لا عليكِ غاليتي، لن نتناقش الآن.. بل سيكون ذلك في المساء بإذن الله تعالى.

وفعلًا كما وعد مؤمل أخته، ففي المساء بدأ كلامه بالقول :

- لقد وعدتكم أن أتحدث عن حقيقة خلق الإنسان التي هي أهم وأقرب حقيقة إلينا نحن بني البشر، فهل تعلمون أيها الأحبة ما هي مراحل خلق هذا الكائن؟

ولما لم يجد جوابًا أكمل :

- سنقوم أنا وأنتم الآن برحلة زمنية قصيرة، ولندقق معًا في هذه الحكاية الرائعة المليئة بالمعجزات منذ البداية..

قال ضياء بتهكم :

- حكاية! ولكن هل ستحكي لنا حكاية فعلًا؟!

إبتسم مؤمل وهو يقول :

- إنها حكاية " خلق الإنسان" يا ولد!

قالت دعاء :

- إن استمر ضياء بالتعليق على كل كلمة فلا أتوقع بأننا سنفهم شيء من البحث!!

قام ضياء محاولًا ترك الغرفة ،أمسكه مؤمل من يده وهو يقول :

- ما بك يا ضياء ..إنها لا تقصد الإساءة!

قال ضياء بعصبية :

- أنت تدافع عنها لأنها خطيبتك وتخشى على مشاعرها، ولا يهمك إن قامت هي بجرح مشاعري!!

صار مؤمل يلاطف ضياء وهو يقول :

- أؤكد لك بأنها لن تفعلها ثانية .. أليس كذلك يا دعاء ؟!

شعرت دعاء بالاحراج الذي أوقعت به مؤمل فسارعت بالاعتذار وقد أعجبها موقف خطيبها الذي كان يحاول بأي طريقة أن يجعل الأجواء هادئة وغير متوترة..

قالت بابتسامة جميلة :

- أعدك يا ضياء بأنني لن أكررها ، فقط ابدأوا يرحمكم الله! لأن الوقت يمضي وقد يأتي أبي ليأخذنا أنا وأمي في أي لحظة!

نظر إليها مؤمل نظرة تنم عن الشكر والامتنان لأنها عرفت كيف تتدارك الموقف وتعتذر بكل أدب وإحترام.

تحدث مؤمل قائلا وهو يمسك بعض الوريقات في يده:

- لنشاهد كيف كان حال الإنسان في حين من الدهر!

لقد كانت البداية خلية واحدة في بطن الأم، وجود عاجز ومحتاج إلى حماية، أصغر من حبيبة ملح واحدة!

انتم أيضًا كنتم عبارة عن هذه الخلية الصغيرة مثلما كل الناس الآخرين على وجه الأرض.

بعد فترة انقسمت هذه الخلية وأصبحت اثنتين ثم انقسمت مرة أخرى وأصبحت أربع خلايا، ثم ثماني ثم ست عشرة.

استمرت الخلايا بالتكاثر ثم ظهرت أولًا قطعة لحم ثم أخذت قطعة اللحم هذه شكلًا وأصبحت لها يدان ورجلان وعينان، فالخلية الأولى كبرت مئة مليار ضعف، وأخذت وزنًا بستة مليار ضعف!!

خلية متناهية في الصغر أجرى الله فيها معجزات عدة، فخلق منها الإنسان الذي يقرأ هذه الكلمات الآن!

رفع مؤمل عينيه من الورقة التي كان يقرأ فيها هذا البحث المهم وهو يقول : إلى هنا.. هل هناك شيء غامض في هذا الكلام؟

قال الجميع بشوق : كلا.. أكمل!

ردد مؤمل في قرارة نفسه عبارة "الحمد لله" ثم اكمل :

هذه مضمون المعجزة بصورة عامة، أحببت أن اطلعكم عليها في بداية هذه الرحلة، فالناس منغمسون في نزعة الحياة اليومية، يسيرون لا مبالين بالمعجزة المهمة المتحققة أمام أعينهم، وها أنا أفي بوعدي لكم فاسمعوا مراحل خلق الإنسان بالتفصيل وكما أثبتها العلم الحديث :

تبدأ أول مرحلة في معجزة الخلق من (العلق) الذي هو مصطلح يطلق على البيضة الملقحة المعلقة بالرحم!

فالبيضة الملقحة ليست إلا كتلة دائرية مكونة من الخلايا الشبيهة ببعضها وليس لها نتوء أو ممسك خاص بها يؤمن لها التعلق بمكان ما، فإذن كيف تستطيع التمسك بجدار الرحم؟

هنا سيتدخل نظام خاص وهو (وجود خلايا موجودة على السطح الخارجي للخلية تقوم بافراز انزيمات خاصة تذيب جدار الرحم وبذلك تتمسك البيضة الملقحة بالرحم بشدة وتنجو من سقوطها خارج الرحم).

قال ضياء بدهشة : يا له من نظام رائع!

حينها أكمل مؤمل وهو يلاحظ اهتمام الجميع بحديثه :

- فهل تعلمون أن هذه الحقيقة التي اكتشفها علم الأحياء الحديث قد ذكرت في القرآن الكريم؟

قالت دعاء :

- وأين ذكرت هذه الحقيقة.. أقصد في أي سورة بالضبط؟

وقبل أن يجيب مؤمل قالت ميساء :

- أنا أعرف الإجابة.

قال ضياء :

- هيا أخبرينا.. أيتها الأخت المحققة!

ابتسم الجميع وهم ينتظرون من ميساء الإجابة.. قالت بكل ثقة :

- إنها في قوله تعالى (اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق).

قال مؤمل بفرح :

- أحسنت أختاه.. فعلًا إن الحقيقة هذه موجودة في سورة (العلق) التي أسميت على إسم هذه الحقيقة!

قال مؤمل ليضيف على كلام ميساء وليؤكد صحة إجابتها :

- وبهذا فإن البيان الإلهي استخدم كلمة (العلق) للتعريف بالخلية المعلقة في رحم الأم في الوقت الذي لم تكن البشرية تعرف أي معلومة عن هذه التفاصيل الدقيقة!

قال الجميع : سبحان الله!

قالت دعاء بلهفة :

- هل أخبركم بمعنى هذه الكلمة لغويا؟ فأنا أعشق لغتنا العربية ولدي الكثير من المعلومات عن ألفاظها وكلماتها!

قال مؤمل بإعجاب شديد :

- هيا ..أسمعينا ما تقوله لغتنا عن العلق ؟

قالت دعاء باهتمام :

- أن كلمة (العلق) في اللغة العربية تقال للشيء المتمسك بمكان ما والمتعلق به، وهذا ينطبق تمامًا مع الوصف القرآني الدقيق!

أما في علم الأحياء فإن هذه الكلمة تستخدم للتعريف عن بعض الطفيليات التي تلتصق بالجلد وتمتص الدم من ذلك المكان.

كان مؤمل يستمع لدعاء بكل إعجاب وفخر!

في هذه الأثناء دخلت أم دعاء غرفة الضيوف حيث اجتمع الشباب الأربعة، قالت بشيء من المزاح :

- ألم تنتهوا من صناعة القنبلة الذرية؟!

ضحكوا من سؤالها وأجابها ضياء قائلًا :

- إننا نتناقش في صناعة شيء أعظم من القنبلة الذرية يا خالة!

14

قالت أم دعاء بعد أن استأذنت من مؤمل :

- هيا يا دعاء.. لقد اتصل والدك وأخبرني بأنه في الطريق إلينا.

كان مؤمل في هذه الأثناء يفكر بطريقة يستطيع من خلالها إقناع خالته بحضور دعاء إلى منزلهم في اليومين القادمين، إذ كان وجودها في هذه الجلسات العلمية تشعره بالاطمئنان أكثر لمستقبله مع خطيبته، قطع سلسلة أفكاره صوت سيارة أبو دعاء ليعلن عن انتهاء الزيارة!

نظر مؤمل إلى دعاء فوجدها حائرة وكأنها تتمنى لو تبقى عندهم، همس في أذنها :

- لا تقلقي سأخرج وأتكلم مع والدك لأقنعه بحضورك عندنا غدًا وبعد غد إلى أن نكمل جلستنا هذه.

فرحت دعاء جدًا فهذه كانت أمنيتها أيضًا، وكما وعدها مؤمل فلقد خرج لإلقاء التحية على والدها ثم تحدث معه قائلًا :

- إن سمحت يا عمي سآتي غدًا إلى بيتكم لاصطحاب دعاء، وسأقوم بارجاعها قبل السابعة مساءًا، وقد يتكرر نفس الأمر في اليوم التالي من بعد إذنك طبعا.

هز أبو دعاء رأسه بالموافقة وهو يظن بأن ابنته وخطيبها وأخيرًا صارا يهيئان لأمور الزواج كالتسوق وشراء الأثاث!

قال وهو يركب سيارته بعد أن لاحظ ركوب زوجته وابنته :

- على راحتك يا ولدي.. ليس لديَّ أي مانع أبدًا.

اليوم التالي :

دخلت أم خالد غرفة الضيوف وهي تحمل في يدها صحنًا جميلًا للتقديم وفيه أكواب الشاي مع الكعك الذي صنعته بيدها، قام ضياء من مكانه ليأخذ الصحن وهو يقول :

- جاء الكعك في وقته يا ماما..فهناك نقاش طويل ينتظرنا ويجب أن نتهيأ له بكل إمكاناتنا!!

ضحك الجميع في جو لا يخلو من المزاح والمرح، بعد ذلك طلب مؤمل من ميساء رفع أكواب الشاي وهو يقول :

- الآن وبعد أن أخذتم طاقة كافية لفتح الأذهان هل لنا أن نبدأ حديثنا؟

قال ضياء بصعوبة إذ كان فمه ما يزال مملوءا بالكعك :

- تكلم تكلم يا أخي .. ها نحن صاغون!

قال مؤمل وهو يلاحظ عودة ميساء بسرعة من المطبخ وجلوسها بالقرب من دعاء :

- في البداية تحدثنا عن مراحل خلق الإنسان بصورة سريعة وعامة، ثم بدأنا بالتحدث عن مرحلة تكون (العلقة) التي ذكرها العلم الحديث وقد ذكرها قبله القرآن الكريم بعشرات القرون، والآن سنتحدث عن مرحلة (المضغة) أو ما يعرف علميًا بـ (التمايز)..

إذ يعيش في عالمنا الذي هو كوكب مليء بالحياة أنواع لا تحصى من الكائنات وحيدة الخلية جميعها تتكاثر عن طريق الانقسام فتكوّن نسخة عنها أثناء انقسامها.

جنين الإنسان النامي في رحم الأم يبدأ الحياة بخلية واحدة وتتكاثر عن طريق نسخ نفسها أيضًا!

وعندما تصبح عبارة عن كتلة من الخلايا المتشابهة هنا ستبدأ بالتمايز (التخصص) ويعني هذا أن تلك الخلايا ستتخصص بالتدريج لتكوّن براعم الرأس والدماغ والقلب والأطراف والعظام وتسمى هذه المرحلة علميًا بـ **Embryo** وبالنظر إلى شكلها من خلال الأجهزة العلمية المتطورة سنلاحظ إنها تشبه قطعة لحم أو علكة ممضوغة!

ولقد أطلق عليها القرآن الكريم لفظ (مضغة) حيث قال تعالى في سورة المؤمنون - آية ١٤ : " فَخلقنا المضغة عظاما".

إن هذا التغير يعتبره علماء الأجنة معجزة هائلة! فالخلايا التي لا وعي لها بدأت بإنشاء الأعضاء الداخلية والهيكل والدماغ!

ففي هذه المرحلة تبدأ خلايا الدماغ بالتكوّن، تنمو خلايا الدماغ ويزداد عددها بسرعة، وفي نهاية هذه المرحلة يصبح الجنين ذو عشر مليارات من خلايا الدماغ!

كل خلية جديدة تتصرف بمعرفة سابقة إلى أين ترجع ومع أي الخلايا يجب أن ترتبط، كل خلية تجد مكانها بين احتمالات لا حصر لها، فترتبط مع الخلايا التي يجب أن ترتبط معها!

ليس فقط خلايا الدماغ بل كل واحدة من الخلايا المتكاثرة بانقسامها في جسم ذلك الجنين تقوم برحلة لا تخطأ فيها من حيث الاتجاه والارتباط فنجد أن كل واحدة تجد المكان المخطط لها وهنا تقوم بالارتباط بالخلايا التي يجب أن ترتبط معها لتكوّن باقي الأعضاء!

حسنًا.. هذه الخلايا التي ليس لها أي وعي؟ من الذي جعلها تتبع هذه الخطة الذكية؟

هنا تبدأ بعض الخلايا بالانقباض والانبساط فجأة! وبعد ذلك تجتمع مئات الآلاف من هذه الخلايا في مكان واحد لتكوّن القلب.

هذا القلب سيستمر بالخفقان طوال العمر!

بعض الخلايا المستقلة تتماسك مع بعضها، وتقيم ارتباطات فيما بينها وتشكل خلايا العروق..

ترى.. من أين تعلمت هذه الخلايا وجوب تكوين العروق وكيفية القيام بهذا؟

في النهاية تصنع خلايا العروق نظام أنبوبي رائع ليس عليه أي ثقب أو شق!

النظام الداخلي للعروق أملس وكأنه صنع بيد صانع ماهر، نظام العروق الرائع هذا سيبدأ بعد مدة بنقل الدم لجميع أجزاء جسم الجنين.

يستمر النمو في بطن الأم ، وتصل أطراف الجنين في نهاية الأسبوع الخامس إلى حال تشبه النتوء ، هذا النتوء سيصبح يدًا كاملة ، حيث تبدأ خلايا معينة بصنع الأيدي، إلا أنه يقوم قسم من هذه الخلايا بعد مدة بعمل مُحيّر للغاية! إذ تقوم الآلاف من الخلايا بتضحية جماعية.

قالت دعاء بتعجب : ولماذا يا ترى هذه التضحية؟

قال مؤمل وهو يوافقها السؤال:

- نعم فعلا هذا ما أريدكم أن تسألوا به أنفسكم : ترى.. لماذا تقدم هذه الخلايا نفسها؟

ثم أردف حين لم يحصل على جواب :

- هذه التضحية تخدم هدفًا مهمًا جدًا، أجسام الخلايا الميتة على خط معين ضروري لتكوين الأصابع، وتقوم الخلايا الأخرى الباقية بأكل الخلايا الميتة حتى تتشكل في هذه المناطق الفراغات اللازمة بين الأصابع!!

السؤال الذي يطرح نفسه : من أين عرفت الخلية أنها بهذه التضحية ستجعل من الطفل المولود ذو أصابع في المستقبل؟

كل هذا يؤكد لنا يا - أحبتي - مرة أخرى أن جميع الخلايا المكونة للإنسان موجهة من قبل حكيم قادر وهو الله تعالى.

ردد الجميع : نعم فعلًا.. لا يوجد تفسير آخر!

سألت ميساء :

- حسنًا هذا الشيء نراه في خلق أصابع اليد، فهل يحدث الشيء نفسه مع الساق والأرجل؟

أجاب مؤمل : نعم يا ميساء.. في هذه الأثناء تبدأ بعض الخلايا بصنع الساق، لا تعرف الخلايا أن الجنين سيحتاج إلى المشي على الأرض، رغم ذلك ستكوّن الساق والأرجل!

تكلم ضياء من غير أن يلتفت إلى نفسه قائلًا : سبحان الله!

استمر مؤمل في الحديث وقد تنفس الصعداء بعد أن سمع هذه الجملة من أخيه الأصغر والتي دلت على تفاعل ضياء مع حديث أخيه الأكبر تفاعلا ملموسًا :

- بعد هذه المرحلة تتكون حفرتان في جانبي رأس الجنين، وفي هذين الحفرتين ستنشأ العينان.

يبدأ تشكيل الأعين في الأسبوع السادس وتعمل الخلايا طوال هذه الأشهر داخل خطة لا يستوعبها العقل لتكوّن أقسام العين المختلفة بتتابع وتناسق، فتصنع بعض الخلايا (القرنية)

وبعضها (الحدقة) وبعضها (العدسة) وتقف كل خلية عند وصولها إلى حد انتهاء القسم الذي يتوجب عليها صنعه!

ونفس الشيء يحصل للأذن التي ستستمع إلى جميع الأصوات فإنها تنشأ بجميع أجزاءها (الخارجية والوسطى والداخلية) في بطن الأم لتشكل بعد ذلك أفضل جهاز لاقط للصوت على وجه الأرض!

وهذا يذكرنا مرة أخرى بقدرة الله الذي منَّ علينا بنعمة السمع والبصر.. ألم تسمعوا قوله تعالى في سورة النحل - آية ٧٨ إذ يقول عز وجل :

" والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئًا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ".

ردد الجميع بعيون دامعة وقلوب خاشعة "الشكر لله.. الشكر لله" .

نظر مؤمل إلى ساعته وهو يقول :

- يجب أن أوصل دعاء إلى منزلها قبل حلول المساء، وستكون جلستنا العلمية يوم غد هي الأخيرة بإذن الله تعالى لنخرج من هذا البحث بنتيجة إيجابية ومقنعة وخاصة لأخي وحبيبي ضياء.

قال ضياء وهو يرتب قميصه : إحم إحم.. هل سمعتما.. أنا حبيبه!

قالت دعاء وقد استاءت من كلام ضياء وظنت أنه يحاول إثارة غيرتها :

- وما يعني هذا؟

ضحك ضياء وهو يقول : إن لم يكن يعني شيئًا فلماذا تضايقتي يا ابنة خالتي؟

قالت وهي تخرج من الغرفة : كنت تنظر إلي أثناء حديثك!

كان كل من مؤمل وميساء مستغرقين بالضحك على الموقف، قال مؤمل وهو يقوم من مكانه مخاطبًا أخته :

- لم أكن أعلم بأنها تغار بهذا الشكل!

ثم التفت إلى ضياء قائلًا :

- وأنت يا أخي سامحك الله.. لماذا جعلتها تخرج وهي مستاءة هكذا؟

قال ضياء وهو يضحك بمكر :

- انظرا.. لقد أنستها غيرتها أن تأخذ حقيبتها اليدوية!

نظر مؤمل إلى حيث كانت تجلس خطيبته فوجد أنها فعلًا قد نست حقيبتها في مكانها، سمع صوت الباب الخارجي يصفق بقوة!

خرج راكضًا خلفها وهو ينادي :

- انتظري يا دعاء ما بكِ، إنكِ حتى لم توَّدعي والدتي؟

قالت وقد لاحت الدموع في عينيها :

- ودّعتها أثناء بقاءك مع حبيبك ضياء.

ضحك مؤمل بصوتٍ عالٍ وهو يسلمها حقيبتها قائلًا :

- هل فعلًا تغارين من أخي؟ وميساء هل تغارين منها أيضًا؟

قالت وهي تمسح دموعها :

- لا طبعا! لكن ضياء أغاضني كثيرًا، ألم تشاهد نظراته وضحكته الخبيثة؟!

قال مؤمل : لم يكن يقصد يا دعاء، قد يكون السبب مني ، فأنا أعامل أخوتي بكل دلال مستعملًا معهم ألفاظ الحب والحنان في حين حرمتك من كل هذا أمامهم!

قال محاولًا جبر خاطرها :

- صدّقيني أتمنى أن أناديك بأجمل الكلمات أمام عائلتي كما أفعل تمامًا أثناء سيرنا لمفردنا أو محادثاتنا في الهاتف.. لولا أن أخي ما زال مراهقًا وأختي أيضًا فتاة شابة وغير متزوجة أو مرتبطة، وأنا أراعي مشاعرهما الجياشة في هذا العمر، فمن الخطأ أن يتعامل الرجل مع خطيبته أو زوجته برومانسية أمام الجميع!

خفضت دعاء رأسها خجلًا وهي تقول : كلامك عين العقل.. أنا من يجب أن أعتذر على سرعة غضبي وانفعالي،كما وأحب أن أشكرك من كل قلبي على المعلومات التي أثريتنا بها اليوم وكلي شوق للجلسة القادمة .

15

لليوم الثالث على التوالي يجتمع الشباب الأربعة من أجل نقاش علمي شيّق في مسألة خلق الإنسان..

وقبل أن يبدأ مؤمل الكلام قالت له خطيبته :

- لا تنسَ يا مؤمل بأنك وعدتني ليلة أمس أن تكون هذه آخر جلسة لنا لننهي بها نقاشنا العلمي هذا.

قال ضياء مستهجنًا كلامها :

- ولكن الحديث مشوّق لماذا مَللتي منه بهذه السرعة؟

قالت دعاء وهي تحاول أن تبدو طبيعية :

- لم أمُلّ من النقاش يا ضياء، لكن والدتي صارت تنزعج من قدومي يوميًا إلى منزلكم!

قالت ميساء وهي تحاول تهدأة الموقف قبل أن يتطور مثلما حدث بين الاثنين في الليلتين الماضيتين:

- هذا الأمر من حقها يا ضياء .. هيا لنستغل كل دقيقة ولنستمع إلى مؤمل فكلنا شوق لمعرفة نهاية حكاية خلق الإنسان!

قال مؤمل :

- هذا ما كنت أريد قوله، لنبدأ على بركة الله.. سيكون حديثنا اليوم عن جزء مهم بالنسبة للجنين ولولا هذا الجزء فلن يستطيع الجنين أن يعيش في بطن أمه للحظة واحدة! فهل تحزرون ما هو؟

صاح ضياء متحمسًا : انه القلب!

قال مؤمل : كلا يا ضياء، فلقد تحدثنا عنه في مرحلة التمايز.

قالت ميساء : أظنه الحبل السري!

إبتسم مؤمل وهو يقول : إجابتكِ قريبة جدًا.. ولكني أقصد جزءًا آخر.

قالت دعاء : إنها المشيمة.. صح؟!

قال مؤمل بفرح : نعم.. أحسنتِ غاليتي!

أن المشيمة أيها الأحبة هي جهاز فائق الأهمية يسد جميع حاجات الجنين إلى حين ولادته، فالمشيمة تعمل كوحدة غسيل للكلية وتعمل عمل القلب والرئة والكبد مادام الجنين في بطن أمه، وتقوم بجميع هذه المهمات في وقت واحد وتصميم خارق تؤمن حياة الطفل والأم معا.

سألت دعاء : وهل لها وظائف أخرى؟

قال مؤمل : نعم عزيزتي.. فبالاضافة إلى حمايتها للجنين في رحم الأم فهي المسؤولة عن إيصال الغذاء والاوكسجين له.

أما حماية الجنين فيتم عن طريق وجود خلايا في الطبقة الخارجية للمشيمة تكون عبارة عن مصفاة بين عروق الدم للأم والجنين..

سأل ضياء متعجبًا : مصفاة!؟

- نعم يا ضياء.. إنها تعمل كمصفاة، إذ أن الخلايا الدفاعية التي في بطن الأم تتوجه نحو الرحم كي لا يتعرض الجنين للهجوم من قبل الأجسام الغريبة، وعند مرور الغذاء إلى الجنين تقوم هذه الخلايا الموجودة في الطبقة الخارجية للمشيمة بمنع مرور خلايا النظام الدفاعي التابعة لجسم الأم.

عاد ضياء للسؤال بفضول كبير :

- وكيف تقوم خلايا المشيمة هذه بتمييز ومعرفة خلايا الغذاء فتسمح بمرورها وتمنع مرور خلايا الدفاع التابعة للأم؟!!

أجاب مؤمل أخاه :

- إن الخلايا المكونة للمشيمة تعرف وتميز من بين ملايين الخلايا في بطن الأم جزيئات الغذاء التي يحتاجها الجنين وتوصلها إليه!

ولو أعطيت مهمة التفكير باحتياجات الجنين للإنسان لما عاش هذا الجنين أكثر من دقائق معدودة! لأنه لا تستطيع أي تقنية يملكها الإنسان حساب حاجات الجنين المتغيرة وسد تلك الحاجات، الآلة الوحيدة التي تقدر على هذه العمليات هي المشيمة!

وهذه التقنية الفائقة لقطعة اللحم المسماة بالمشيمة توضح لنا مرة أخرى القدرة والكمال في خلق الله تعالى.

سألت دعاء :

- وكيف تقوم المشيمة بإيصال الغذاء والأوكسجين إلى الجنين؟

أجابها مؤمل :

- عن طريق الحبل السري والذي يؤمن الارتباط بين جسم الأم والجنين، هذا الحبل الذي يُقطع ويُرمى بعد الولادة كانت له مهمة حياتية طوال تسعة أشهر في كونه معجزة هندسية عظيمة، إذ يمر داخل هذا الحبل ثلاثة خطوط متفرقة، أحد هذه الخطوط تنقل الغذاء والاوكسجين للجنين، وبفضل هذا النظام لا يختنق الجنين رقم عيشه في بيئة مليئة بالسوائل، ولا يموت جوعًا رغم عدم تكوين نظامه الهضمي وعدم قدرته على الأكل!

أما الخطان الآخران للحبل فيطرحان فضلات الطعام والسوائل الذي ينتجه الجنين من الجسم، وليس للأم ولا للجنين الذي ينمو في بطنها علم بهذه الأنظمة كلها!!

طوال مرور هذه الأشهر، الطفل الذي في بطن الأم يأخذ شكلًا وينمو، ويصل إلى حالة يمكنه الانتقال والعيش في العالم الخارجي.

قالت ميساء بدهشة :

- ولكن خلال هذه الفترة الطويلة من رحلة عمر الإنسان، أقصد من خلق نبي الله آدم عليه السلام وحتى بعثة رسولنا محمد (صلى الله عليه وآله) كيف فسر الإنسان مراحل خلقه في بطن أمه؟ ألم يأتِ أي شخص أو عالم في كل تلك الفترة ليبحث عن هذا الأمر المهم؟!

قال مؤمل :

- بلى يا ميساء.. لقد جاء علماء كثيرون في تلك الفترة التي سبقت ولادة نبينا محمد (صلى الله عليه وآله) وحاول بعضهم أن يفسر مراحل تطور الإنسان ضمن اعتقادات كانت بعيدة تمامًا عن الحقيقة العلمية فلقد كانت أقرب إلى الخرافة!

فمثلًا في عصر أرسطو كان الاعتقاد السائد أن الجنين موجود في النطفة مخلوقًا كاملًا ولكنه صغير جدًا!! ثم ينمو بالتدريج داخل رحم الأم تمامًا كما تنمو بذرة أي نبات! وهذه النظرية تسمى نظرية " الجنين القزم".

بينما نجد أن القرآن الكريم قد أكد بصورة علمية دقيقة أن الإنسان إنما خلق من (أمشاج) وقد أجمع أهل التفسير واللغة بأن الامشاج تعني الأخلاط والمصطلح العلمي يسميها البيضة الملقحة (اي البيضة المختلطة بالنطفة) ، وكلمة أمشاج وردت في سورة الإنسان - آية ٢ في قوله تعالى (إنا خلقنا الإنسان من نطفةٍ أمشاجٍ نبتليه فجعلناه سميعًا بصيرا).

قال مؤمل وهو يوجه كلامه للشباب الثلاثة :

- فهل تصدقون بأن هذه المعلومات الدقيقة التي وردت في القرآن الكريم لم يكشفها العلم إلا في القرن الثامن عشر، ولم يتأكد من ذلك إلا في بداية القرن العشرين!!

أكمل مؤمل وسط ذهول إخوته وخطيبته :

بالإضافة إلى ذلك كان في الماضي الاعتقاد السائد أن العظام والعضلات تتشكلان معًا إلا أن البحوث الأخيرة إكتشفت أن العظام تتشكل في الجنين أولًا بعد ذلك تغطيها العضلات ، في حين أن القرآن الكريم أشار إلى ذلك قبل ١٤٠٠ سنة وذلك في قوله تعالى في سورة المؤمنون - آية ١٤ (ثم خلقنا النطفةَ علقةً فخلقنا العلقةَ مضغةً فخلقنا المضغةَ عظامًا فكسونا العظامَ لحمًا ثم أنشأناه خلقًا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين).

ردد الثلاثة بدهشة :

- تبارك الله ..تبارك الله

أكمل مؤمل :

- لقد أذهلت الآيات القرآنية التي تتكلم عن خلق الإنسان العديد من جهابذة علماء العصر ومن بينهم البروفيسور " كيت مور" أستاذ علم الجينات في الجامعة الأمريكية وصاحب أشهر كتاب عن الجنين في العالم، فلقد قال مور : " لقد كان نبيكم إنسانًا بسيطًا ورجلًا أميًّا، وقد عاش ومات في وقت لم يكن فيه لعلم الأجنة أساس ولا خبر، كما لم يكن هناك مجاهر على الإطلاق، ولم يكن علم البصريات قد ظهر إلى عالم الوجود بعد، فمن أين له بهذه المعلومات العلمية المذهلة؟". ولقد طلب الدكتور كيت مور من الشيخ عبد المجيد الزنداني أن يقوم بكتابة مقدمة لكتابه يتحدث فيها عن مراحل خلق الإنسان كما ذكرها القرآن الكريم.

وقد قام الشيخ الزنداني بكتابة مقدمة لذلك الكتاب والذي كان عنوانه (أطوار خلق الإنسان) **The Developing Human** وهذا الكتاب يعتبر الآن من أهم الكتب في علم الأجنة وهو مترجم إلى ثمانية لغات عالمية.

وبعد كل هذا يأتي الإنسان الوقح ليسأل ما هو الدليل على وجود الله؟

دمعت عيون الشباب الثلاثة وهم يستمعون إلى كل هذه الحقائق العظيمة المتمثلة في خلق الإنسان والتي تثبت وجود خالق عظيم وقادر حكيم، قال مؤمل وهو يسحب أحد الأوراق التي وضعها أمامه خلال هذا البحث :

استمعوا أخيرًا إلى أبلغ ما قرأت في وصف وقاحة الإنسان المُلحد :

يقِف أمامك بجسمهِ المكوّن من أكثر من ٢٠ تريليون خلية، وكل خلية منها تحوي جسورًا ومصانع ونظام تشفير معقد متقن في الشفرة الوراثية..

وينظر إليك بعينيه التي تحوي نظام تصوير مميز للألوان، وبدقة مذهلة مع آلية خيالية لتخزين الصورة المتحركة والساكنة، بل وتفسيرها بواسطة الدماغ وتحليلها بأقل من الثانية..!

وبقوامه المعتدل الذي يدار من قبل ٦٤٠ عضلة، ناسياً قلبه الذي يعمل منذ عشرات السنوات ليلاً ونهاراً، في النوم واليقظة، وبلا توقف ولا صيانة خارجية..!

ثم يصدر الأمر من عقله الذي كتبت في أجزائه الرسائل العلمية والتي ما زال فيها الكثير من الغموض.. ليسألك بكل وقاحة :

أين الدليل على وجود الخالق؟!!!

لا ندري أي الجوابين أنسب لسؤاله؟ هل هو قوله تعالى :

"وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ "؟!

أم قوله عز وجل : " قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ "؟!

16

استيقظ مؤمل على صوت صراخ وضجيج يملأ أرجاء المنزل.. في البداية لم يكن يميز الأصوات والكلمات التي كانت تعلو تارةً وتنخفض تارةً أخرى فالنعاس مازال مهيمنًا على عيونهِ وأجفانهِ!

إلا أنه الآن وبعد أن سكب كوباً من الماء البارد على وجههِ صارَ يميز مايجري..

إنه ضياء يطلب مفاتيح سيارة والده من أمهِ التي ترفض أن تعطيها إياه!

صرخ في وجهها وهو يهم بالخروج :

-اسمعي! سوف لن تري وجهي مرة أخرى.. ولن أظهر لكِ بعد سنة كاملة كما حدث مع ابنكِ الأكبر!

بل صدقيني ستكون هذهِ آخر مرة تريني فيها طوال حياتك.. هل فهمتي؟!

وبعد هذهِ الكلمات التي سمعها مؤمل وهو مايزال في غرفتهِ

سمع صوت الباب تصفق بقوة، فعرف أن ضياء قد ترك المنزل.. خرج مؤمل من غرفته وركض خلفهُ ليرجعهُ لكنه لم يفلح إذ أن ضياء كان في حالة من الهستريا والعصبية مما أدى بمؤمل إلى العودة للمنزل مطأطأ الرأس مذهول الفكر مما رأى وسمع!

وما أن دخل إلى غرفة الجلوس حتى رأى والدتهُ في حالة من البكاء والنحيب، حاول تهدأتها ليعرف منها ما جرى مع أخيه الأصغر.. قالت الأم وهي تمسح دموعها :

- لقد منعني والدك من إعطائه مفاتيح السيارة فهو ما يزال صغيرًا على قيادتها، نحن نخاف عليه وخاصة بعدما تعرضتَ له أنت من حادث مفجع.

سألها مؤمل :

- وهل هذا هو أسلوبه معكِ دائمًا يا أماه؟!

قالت الأم وهي تنظر إلى وجه مؤمل بدهشة :

- أي أسلوب تقصد يا ولدي؟

- أسلوبه هذا.. الذي تحدث به معكِ قبل قليل!

- اوه.. تقصد قسوته وعصبيته! إنها شيء طبيعي كما أنك كنت أكثر منه قسوة وعصبية!

- وهل كنتُ أتفوه بهذه الكلمات التي سمعتها منه اليوم؟!

- مثل ماذا؟

- سمعته يصرخ في وجهك ويقول : اسمعي! وهل فهمتي!

ابتسمت الأم ابتسامة حزينة مصحوبة بالألم والحسرة وقالت :

- هذا أسلوب قديم تعلمه منك يا ولدي!

قال بألم :

- وهل كنت اتجرأ على تلفظ مثل هذه الكلمات معك يا أماه؟!

- بل أكثر منها!

وهنا أمسك بيد أمه وقبلها باكيًا.. بللت دموعه يدها النحيلة فأحست بحرارة تلك الدموع، مسحت باليد الأخرى على رأسه وهي تقول :

- هل تريدني أن أسامحك؟

رفع رأسه وهو ينظر إليها ويقول :

- نعم أرجوكِ أماه!

قالت بابتسامة جميلة :

- حسنًا لكن بشرط!

- وما هو؟

- أن تتكلم مع أخيك الأصغر وتحاول إقناعه بخطأ تلك الأفعال!

- نعم وهذا ما كنت أنوي فعله.. صدقيني أمي.

دخل مؤمل غرفته وأخذ هاتفه المحمول ليتصل بضياء.. اتصل أكثر من خمس مرات ولم يفتح ضياء الخط إلا في المرة الأخيرة!

- السلام عليكم ضياء حبيبي

- أهلًا خالد.. ماذا تريد؟

- هل هكذا تجيب اخاك الأكبر؟

- لكن يا خالد.. إن أمي ..

وقبل أن يكمل قاطعه مؤمل بالقول :

- أن أمي تخشى عليك يا ولد، فالحادث الذي حصل لي قبل عام جعلها هي والوالد يخشيان كثيرًا من مسألة قيادتك السيارة وأنت في هذا العمر، عد إلى المنزل وأعدك بأني سأعلمك القيادة بأقرب فرصة ممكنة.

- هل تعدني فعلًا؟

- نعم يا حبيبي أقسم بالله العظيم .. عد الآن أرجوك!

في المساء كان ضياء يجلس مع مؤمل في غرفته وقد دار بينهما هذا الحديث :

- قد تتساءل الآن مع نفسك يا ضياء، رغم مرور شهرين تقريبًا على رجوعي للمنزل لكني إلى الآن لم أرفع صوتي على أي أحد منكم.

- نعم صحيح!

- هل تعلم لماذا؟

- لا!

- لأنني ومن خلال مطالعتي لحياة الأنبياء والصالحين عرفت ما معنى أن يكون المرء صاحب خلق رفيع، ولأني أحببت حياتهم وقررت أن أجعلهم قدوتي في كل تصرفاتي تراني هادئًا لا أحب المشاكل ولا العراك!

- أنهم في كثير من الأحيان يستفزونني بكلامهم يا خالد.. صدقني! دائما يحاولون إظهاري بأني الخطأ وهم المحقون في كل شيء.

- ليس أكثر مني يا فتى!

- لم أفهم ماذا تقصد!

- دائما يسمعونني أهلي وأنت منهم وحتى خطيبتي وأهلها بأنني كنت أنسانًا مخطئًا بل حتى أخطائك أنت يرجعونها لي أنا لأنك أخي الأصغر وتقلدني في كل شيء!

قال ضياء مستاءًا :

- يجب أن لا تسكت عنهم مرة أخرى، أسمعهم كلاما قويا حتى لا يجرحوك هكذا!

- ولكن يا ضياء.. هذا الأسلوب ليس من أخلاق الصالحين الذين أتمنى أن أقتدي بهم حقًا!

- وما الحل برأيك؟

- الحل أن نجبر خواطر بعضنا لا أن نخلق العداوات والبغضاء، فالشيطان يا ضياء يتمنى إثارة الفتنة بين الناس!

كما أن كسر القلوب ليس بالشيء الهين يا ضياء، اسمع مني هذه القصة اللطيفة..

قال ضياء : هاتِ ما في جعبتك من قصص ، أسمعك.

تحدث مؤمل قائلًا :

- انتهت إجازته وركب الطائرة عائداً إلى بلده ..

جلست بجانبه إمرأة كبيرة في العمر ..

في الطائرة قاموا بتقديم وجبات الطعام ومع كل وجبة قطعة حلوى بيضاء ..

المرأة المسنة فتحت قطعة (الحلوى) و بدأت تأكلها بقطعة خبز ظناً منها أنها قطعة جبنة بسبب اللون الأبيض ..!

وعندما اكتشفت أنها (حلوى) شعرت بإحراج شديد ونظرت إلى الرجل الذي بجانبها ، فتظاهر بأنه لم يرَ ما حصل ..

ثوانٍ قليلة بعدها، قام بفتح قطعة (الحلوى) من صحنه وقام بما قامت به المرأة المسنة تمامًا فضحكتْ المرأة .. فقال لها : الله يسامحك يا خالة لماذا لم تخبريني أنها حلوى وليست جبنة ؟!!

فقالت المرأة : وأنا كذلك ياولدي كنت أظنها جبنة مثلك!!

سأله ضياء بفضول :

- وهل فعلًا لم يكن يعرف أنها قطعة حلوى؟

قال مؤمل مبتسمًا :

- بالتأكيد كان يعرف أنها ليست جبنة ، ويعرف أنها رحلة وتنتهي ، ويعرف أنها مجرد امرأة بسيطة..!

لكنه طبق كلام أحد الحكماء حين قال :

(ما رأيتُ خُلقًا أجلّ وأعظم من جبر الخواطر)

فإماطة الأذى عن مشاعر وقلوب الناس يا ضياء لايقل درجة عن إماطة الأذى عن طريقهم!

حاول يا أخي العزيز أن تجبر الخواطر أينما كنت، وراعي المشاعر مع كل من حولك، وانتقي كلماتك، وتلطف بافعالك

ولا تؤلم أحداً وقل للناس حسنًا .

لنعش أنقياء أصفياء، فهذا نهج الأنبياء وأخلاق النبلاء..

سنرحل ويبقى الأثر، فليكن أثرا طيبًا يبقى في نفوس كل من يعرفنا.

قال ضياء :

- كيف أصبحت أخلاقك هكذا يا أخي؟ هل مجرد معرفتك لحياة وأخلاق الأنبياء والصالحين قلبت حياتك هكذا! ومن هو أكثر شخص تأثرت بأخلاقه من أولئك الصالحين؟

دمعت عينا مؤمل وهو يقول :

- لقد قرأت كثيرًا عن أئمة الهدى وبالخصوص الإمام علي بن الحسين الملقب بـ (زين العابدين) وتأثرت بأخلاقه العالية، كما أن كلماته في الصحيفة السجادية وكذلك في رسالة الحقوق تعتبر بالنسبة لي مدرسة روحية عظيمة.

سأل ضياء بدهشة :

- هل تقصد الإمام السجاد ابن الإمام الحسين عليه السلام؟

- نعم يا ضياء.. هو بعينه!

- أتمنى أن أعرف ما هي تلك الكلمات التي جعلتك هكذا صاحب خلق رفيع وشخصية هادئة؟!

فرح مؤمل بسؤال أخيه ووعده أن يقرأ له بعض مما جاء في الصحيفة السجادية وخاصة فيما يخص مسألة بر الوالدين.

قال وقد لف ذراعه على كتفي أخيه الأصغر :

- الشخص الذي يتمنى أن يعرف حقيقة أخلاقه مع من حوله هل هي صحيحة أم لا عليه قراءة رسالة الحقوق، ومن يريد أن يعرف حقيقة بره بوالديه عليه أن يقرأ (دعاء الإمام زين العابدين لوالديه) وكذلك حق الأب وحق الأم اللذان وردا في رسالة الحقوق لذلك الإمام العظيم ..

بعد أن نقرأ هذه الكلمات سنقوم بأنفسنا بتقييم مقدار أخلاقنا مع الآخرين وكذلك مقدار برنا بوالدينا وسنعرف من خلالها هل نحن من أهل العقوق للآباء والأمهات أم من أهل البر بهما؟!

هنا جاءت ميساء لتناديهما فقد حل موعد العشاء، قام مؤمل وسحب يد أخيه برفق وهو يقول :

هيا للعشاء الآن وبعدها سنقضي أمسيتنا هذه بقراءة كلمات الإمام السجاد" عليه السلام " وتوضيح كل ما يلزم توضيحه يا عزيز أخيك.

17

بعد العشاء جلس مؤمل مع ضياء كما وعده وقد بدأ ضياء الحديث بالقول :

- قبل أن نقرأ دعاء الإمام السجاد عليه السلام هناك سؤال بقى عالقًا في ذهني عند حديثنا قبل ساعة!

- وما هو؟ هاته!

- قلت إن الشيطان يحب أن تشيع العداوة والبغضاء بين الناس؟ فكيف عرفت ذلك!؟

قال مؤمل وقد فهم قصد أخيه :

- لقد ذكر الله ذلك في كتابه الكريم، ففي سورة المائدة - آية ٩١ نقرأ (إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء..).

سأل ضياء باهتمام :

- حسنًا وكيف يمكن أن نتخلص من الشيطان في هذا الأمر؟

- الإجابة نجدها في قوله تعالى (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين، وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم، إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون) الأعراف آية ١٩٩ - ٢٠١

قال ضياء :

- وما الذي تقصده هذه الآيات؟

- أنه تعالى يوضح لنا أهم الخطوات التي يجب أن نتبعها في حال نزغ الشيطان بيننا وبين الآخرين لزرع العداوة والبغضاء والخطوات هي كالتالي: العفو عنهم، والأعراض عن جهلهم، والاستعاذة بالله من الشيطان ما أن نتذكر دوره في كل هذا!!

ولا تكون الاستعانة فقط بقول" أعوذ بالله من الشيطان الرجيم" بل يجب أن تكون الاستعاذة قولًا وفعلًا بعدم الاستماع الى وساوسه التي يريد بها إشعال نار الفتنة بين المؤمنين .

بعد هذا النقاش حول دور الشيطان في حصول أي نزاع بين المؤمنين دعا مؤمل أخاه ليشاركه في قراءة (دعاء الإمام السجاد عليه السلام لوالديه) كما اتفاقا قبل العشاء ..

ولقد رحب ضياء بهذه الدعوة وجلس بالقرب من أخيه الذي صار يقرأ الدعاء بدموع حرى وبعبرة تعتصر القلب على كل التقصير في حق الوالدين.

بعد أن اكملا ذلك الدعاء الشريف قال مؤمل وهو يرى تأثر ضياء بكلمات الإمام السجاد عليه السلام :

والآن لنفسر ما جاء في هذا الدعاء المبارك لعلَّ الله ينفعنا به في الدنيا والآخرة، قال ضياء باهتمام :

- حسنًا لنبدأ.. وكلي آذانٌ صاغية.

لنبدأ من المقطع الأول : " اللهم صل على محمد عبدك ورسولك وأهل بيته الطاهرين وأخصصهم بأفضل صلواتك ورحمتك وبركاتك وسلامك واخصص اللهم والديَّ بالكرامة لديك والصلاة منك يا أرحم الراحمين..

يبدأ إمامنا السجاد عليه السلام بعد الصلاة والسلام على رسول الله وأهل بيته الطاهرين بالدعاء لوالديه بأن يكونا مكرمين عند الله، فلم يطلب لهما الصحة وطول العمر أو الرزق وما شابه ذلك بل طلب لهما (الكرامة عند الله) وهو بذلك يطلب لهما المنزلة الرفيعة عند الخالق جل وعلا، وفي هذه موعظة عظيمة لنا فهو عليه السلام يعلمنا أن ندعو للآخرة قبل دعائنا للدنيا، وأن أهم وأعظم حاجة يمكن أن نطلبها من الله تعالى هي (مرضاته عنا وعلو منزلتنا لديه سبحانه) وهو ما عبر عنه الإمام عليه السلام بالكرامة لدى الله.

بعد ذلك يقول (وألهمني علم ما يجب علي إلهاما ...)

وهنا يدعو لنفسه أن يلهمه الله معرفة حقوق الوالدين ليكون بارًا بهما وليس عاقًا لهما!

سأل ضياء مستغربًا :

- وما معنى "عاقا" يا أخي؟

- إن معنى العقوق يا ضياء هو عدم إعطاء الحق لصاحبه، فأنت أن كنت غير معطي حق والديك فحينها ستكون عاقًا لهما يا أخي الحبيب.

هزَّ ضياء رأسه معبرًا عن فهمه لهذا التوضيح ثم قال :

- حسنًا وما هو حق الوالدين؟

أجابه مؤمل مبتسمًا :

- يذكرني سؤالك هذا بذلك الموقف الذي يرجع إلى زمن رسول الله " صلى الله عليه وآله " حين جاءه رجل يسأله عن حق الوالدين على ولدهما فقال له باختصار : هما جنتك ونارك. (المصدر : الترغيب والترهيب ج ٣)

قال ضياء متساءًلا :

- وما معنى هذا؟ لم أفهم!

- معناه يا عزيزي أنهما قد يدخلاك الجنة التي ستنعم فيها في الآخرة، أو يدخلاك النار التي ستخلد فيها إلى الأبد!

فتح ضياء عينيه بطريقة جعلت مؤمل يضحك بقوة قائلًا :

- ما بك يا ضياء؟ هل تفاجأت!

قال ضياء بدهشة : هل.. هل فعلًا هما اللذان يدخلانني الجنة أو النار؟

- نعم يا أخي.. وإلا ماذا يمكن أن نفهم من قول الرسول غير هذا؟

- ولكن.. كيف ذلك؟!

- إن أعطيتهما حقهما قاداك إلى الجنة، وإن كنت من أهل العقوق لهما قاداك إلى النار!

سكت مؤمل قليلًا.. فبادره ضياء بالقول :

- أكمل أكمل يا أخي يرحمك الله!

أكمل مؤمل حديثه وهو غير متوقع بأن أخاه الأصغر سيتفاعل مع هذا الحديث بهذه الشكل!

- والدليل يا ضياء بأن حق الوالدين أكبر مما قد نتصور هو قول الرسول صلى الله عليه وآله : نظر الولد إلى لوالديه حبًا لهما عبادة. (المصدر : البحار- ج ٧١)

فإن مجرد نظرك بمحبة لهما يعتبره الله عبادة تؤجر عليها، فما بالك لو أطعتهما في كل ما يحبان؟!

وسنتعرف على الكثير من حقوقهما بالتدريج من خلال شرح هذا الدعاء الشريف.

حيث يدعو عليه السلام بعد ذلك بقوله :

" اللهم إجعلني أهابهما هيبة السلطان العسوف، وأبرهما بر الأم الرؤوف.. "

سأل ضياء : ما معنى السلطان العسوف؟

- معناه الحاكم الظالم!

فهنا يعلمنا الإمام عدة حقوق للوالدين ومن أهمها : أن نخشاهما ونهابهما كما يهاب أحدنا الحاكم الظالم والسلطان الجائر!

أما قوله (وأبرهما بر الأم الرؤوف) فيقصد عليه السلام أن نبرهما كما تبر الأم بأولادها..

- ولكن ما معنى البر؟ وكيف يكون؟

-البر يا ضياء هو كل عمل خير تفعله في حياتك، وهذا يعني أننا يجب أن نقدم لوالدينا كل الخير ونسعى في إسعادهما دائمًا كمل تفعل الأم مع أبنائها بالضبط! فنراها تسعى من الصباح حتى المساء جاهدة لتقديم كل الخير لأولادها فلا يهدأ لها بال حتى تنتهي من كل عمل يخص أولادها! فعلينا أن نبر آبائنا وأمهاتنا كما تفعل تلك الأم الحنون بالضبط .

ثم يقول عليه السلام :

"واجعل طاعتي لوالديَّ وبري بهما أقرَّ لعيني من رقدة الوسنان وأثلج لصدري من شربة الضمآن.. "

سأل ضياء بعد أن أكمل مؤمل قراءة هذا المقطع:

- صحيح يامؤمل! عندما قرأنا الدعاء معًا قبل قليل تساءلت مع نفسي : ما معنى رقدة الوسنان؟!

أجاب مومل أخاه قائلاً :

الرقدة هو النوم، والوسنان من الوسن أي النعاس..

إن الإمام عليه السلام يطلب من الله أن يجعل تأثير طاعته لوالديه في قلبه كتأثير النوم على الإنسان الذي أصابه النعاس، فرقدة الوسنان تعني (نوم الإنسان الذي أرهقه النعاس)

فكيف أن هذا الإنسان تقر عينه بالنوم في وقت هو أشد ما يكون للرقود والراحة هكذا يتمنى الإمام أن تكون عينه بطاعته لوالديه أقر من عين ذلك الإنسان الراقد بعد نعاس شديد!!

أما قوله (وأثلج لصدري من شربة الضمآن) فالضمأ هو العطش الشديد، فهو يدعو من الله أن تكون تأثير طاعته لوالديه في صدره أثلج من شربة الماء البارد عندما تنزل في صدر انسان شديد العطش!!

قال ضياء بدهشة : سبحان الله! يا له من تعبير ووصف دقيق ورائع للغاية! ولكن..

- لكن ماذا يا ضياء؟

- لماذا يطلب الإمام السجاد " عليه السلام" من الله تعالى بأن يجعله مستشعرًا لتأثير الطاعة على نفسه؟ ألا يكفي أن يطيع والديه فقط فيحصل على (رضا الله) أليست هذه أهم غاية في الحياة.. وهي الحصول على رضوان الله تعالى؟ لماذا إذن يريد الإمام أن يستشعر في نفسه تأثير تلك الطاعة؟

قال مؤمل مبتسمًا :

- نعم يا حبيبي، فعلًا إنه سؤال ممتاز! وسيجيبك عنه الإمام السجاد عليه السلام بنفسه ، فبعد ذلك المقطع من الدعاء يقول :

" حتى أؤثر على هواي هواهما، وأُقدِّم على رِضايَّ رِضاهما، وأستكثرَ برَّهما بي وإن قَل، وأستقلَّ برّي بهما وإن كثُر "!

فهنا يبين لنا " عليه السلام" سبب طلبه من الله تعالى أن يجعل تأثير طاعته لوالديه تأثيرًا كبيرًا في نفسه .. حتى يكون ذلك التأثير دافعًا له وحافزًا إليه ليزيد من تلك الطاعة إلى الدرجة التي تجعله يقدم مصلحة أبويه على مصلحته وهو ما يعرف بالإيثار.. وذلك في قوله" حتى أؤثر على هواي هواهما " فهو عندما يستشعر الفرحة في كل أمر يعمله وفيه طاعة لوالديه حينها ستجعله تلك الفرحة ينسى مصالحه بل وقد يلغيها أمام مصلحة والديه، ويترك هواه وما ترغب به نفسه في سبيل تحقيق رغبة والديه وتقديم هواهما وراحتهما على هواه وراحته!

كما أن ذلك الشعور الذي يدعو من الله أن يجعله في صدره - وهو الشعور بالفرحة عند اطاعته لوالديه - سيحفزه أيضًا ويدفعه لأمر آخر غير الإيثار!

قال ضياء بفضول :

- وما هو ذلك الأمر؟

- نجده في قوله " عليه السلام" (وأستكثرَ بِرّهما بي وإن قَلّ، وأستقلَّ بري بهما وإن كثُر) فسيرى حينها بأن كل عمل يقدمانه له والداه هو كثيرٌ في حقه ، وأن كل عمل يقدمه لهما هو قليل في حقهما مهما كان كثيرًا!!

18

وبعد ذلك يا ضياء يدعو الإمام السجاد عليه السلام بأن يُمكنّه الله مِن أداء بعض الحقوق لوالديه بقوله :

(اللهم خفّض لهما صوتي، وأطب لهما كلامي وألن لهما عريكتي واعطف عليهما قلبي، وصيّرني بهما رفيقًا وعليهما شفيقا) ..

وفي هذا المقطع من الدعاء الشريف يعلمنا صلوات الله عليه آداب التعامل مع الآباء، فيجب أن يكون صوتنا معهما منخفضًا ولا يعلو على أصواتهما أبدا، وأن يكون كلامنا معهما لطيفًا وطيبًا، وكما تعلم يا أخي بأن الله تعالى قد نهانا عن قول كلمة (أف) لهما حيث أن هذه أقل كلمة يمكن أن تقال للوالدين في حالة الغضب، يقول تعالى (فلا تقل لهما أفٍّ ولا تنهرهُما وقُل لهما قولًا كريمًا) سورة الإسراء - آية ٢٣

ولقد قال الإمام الصادق عليه السلام إشارة منه لهذه الآية الكريمة : أدنى العقوق (أف) ولو علم الله شيئًا أهون منه لنهى عنه! (المصدر : البحار ج ٧٤)

هل تعلم يا ضياء ما معنى هذا الحديث الشريف؟

- لا يا أخي!

- معناه انه لو كانت هناك كلمة أقلّ شِدّةً من هذه الكلمة وهي " أف" لنهى الله عنها أيضا!

انظر إلى كلمة " أف " من كم حرف تتكون؟

قال ضياء باهتمام :

- تتكون من حرفين!

- فإذا رجعنا إلى قول الأمام الصادق عليه السلام فسيكون المعنى أنه لو كانت هناك كلمة تتكون من حرف واحد وفيها شيء من الشدة لنهانا الله عن قولها للأبوين، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن الله تعالى لا يقبل أن تُسمِع أبويك أي كلام جارح مهما كان قليلًا حتى لو كان من حرفين بل حتى لو كان من حرف واحد!!

بل يجب أن لا تنظر إليهما بِحدّة أو غضب وإن كانا ظالمين لك، فعن الإمام الصادق أيضًا قال ما مضمونه : مِنَ العقوق أن ينظر المرء إلى والديه فيحدّ النظر إليهما!

وكذلك قوله عليه السلام :" من نظر إلى أبويه نظر ماقت لهما وهما ظالمان له، فلن يقبل الله له صلاة!" (نفس المصدر)

انظر يا أخي رحمك الله!

موقفك اليوم صباحًا مع أمّنا هل كان جائزًا عندما أسمعتها كل تلك الكلمات الجارحة وأنت تصيح في وجهها حتى علا صوتك فوق صوتها والله يعلم كيف كانت نظراتك لها مع كل تلك العصبية والغضب؟

قال ضياء محاولًا الدفاع عن نفسه :

- لكن أهلي ظالمين لي، وأنا دائمًا أقولها لأمي : إنكِ ظالمة!

- وأبي.. لماذا لا تقول له هذه الكلمات؟!

طأطأ ضياء رأسه وهو يقول :

- لأنني أخشاه!

قال مؤمل بألم :

- هل لأن الأم تعاملنا بلطف ومحبة وتحاول أن تكون لطيفة معنا دائمًا نستغلها هكذا ونستغل طيبتها وحنانها فنبدأ بالتضجر منها وإسماعها أقسى الكلمات ما إن امتنعت عن تأدية أحد طلباتنا! في حين أن الأب ولأنه شديد بعض الشيء وله سلطة علينا قد تصل إلى الضرب فإننا نخشاه ونهابه ونحترمه أكثر من الأم؟

لم ينبس ضياء ببنت شفة! أكمل مؤمل كلامه وقد حاول استعادة هدوءه :

- هل علمتَ الآن أنه حتى لو كان والداك ظالمين لك فلا يجوز أن ترفع صوتك عليهما بل لا يجوز أن تنظر إليهما بِحدّة؟ بل حتى لو كانا مشركين بالله!

صاح ضياء بدهشة :

- ماذا؟ حتى لو كانا مشركين؟!

- نعم يا حبيبي.. حتى لو كانا مشركين، فهذا إمامنا الرضا عليه السلام يقول (بر الوالدين واجب وإن كانا مشركين...)

قاطعه ضياء بالقول :

- عجيب! وماذا لو طلبا مني أن أشرك بالله؟

أجابه مؤمل مبتسمًا :

- لم تدعني أكمل الحديث يا نور عيني!

قال ضياء بخجل :

- أكمل .. أكمل يا أخي

- فعندما قال الإمام الرضا عليه السلام : بر الوالدين واجب وإن كانا مشركين.. أكمل حديثه بالقول : ولا طاعة لهما في معصية الخالق!

وهذا يعني أننا يجب أن نطيعهما حتى لو كانا مشركين بالله بشرط أن تكون طاعتهما ضمن حدود طاعة الله سبحانه وتعالى..

فلقد قال تعالى في كتابه الكريم (وإن جاهداك على أن تُشرك بي ما ليس لك به عِلم فلا تُطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفًا) سورة لقمان - آية ١٥

فانظر يا أخي رعاك الله كيف يُقدر الله الوالدين وإن كانا مشركين به!! بحيث يوصينا أن نصاحبهما بالمعروف في هذه الدنيا، فكيف إذا كانا مؤمنين به سبحانه؟ واي مكانة ستكون لهما حينها؟ حينها سيربط الله رضاه عنك برضاهما وهو قول رسوله الكريم (من أرضى والديه فقد أرضى الله ومن أسخط والديه فقط أسخط الله).

نعود الآن إلى الدعاء ففي المقطع التالي يُعلمنا الإمام السجاد عليه السلام أن نشكر أبوينا دائمًا بل وأن ندعو الله أن يشكرهما نيابةً عنا!!

قال ضياء متعجبًا : وكيف يكون ذلك؟

أجابها مؤمل :

- قد لا نستطيع مهما قلنا لهما من كلام طيب ومهما عملنا لأجلهما من خير أن نشكرهما حق شكرهما فنلجأ حينها إلى الله تعالى بالدعاء لهما وذلك بقوله عليه السلام :

" اللهم اشكر لهما تربيتي، وأثبهما على تكرمتي، واحفظ لهما ما حفظاه مني في صغري "

ثم يقول عليه السلام :

" اللهم وما مسّهما مني من أذى أو خلص إليهما عني من مكروه، أو ضاع قبلي لهما من حق، فاجعله حِطّةً لذنوبهما، وعلّوًا في درجاتهما، وزيادةً في حسناتهما، يا مُبدّل السيئات بأضعافها من الحسنات".

وهنا يا ضياء يدعو الإمام عليه السلام بشيء عظيم للأبوين يعلمنا من خلاله أن نحاول دائما تجنب آذاهما فهو يقول " ما مسّهما مني من أذى.." فهل تعتقد بإن الإمام السجاد عليه السلام وهو الإمام المعصوم من أي خطأ أو زلل قد بدر منه في يوم من الأيام أي عمل آذى فيه والديه؟

قال ضياء بثقة : طبعًا لا!

فسأله مؤمل :

- إذن لماذا برأيك يدعو عليه السلام بهذا المقطع؟

- أظنه فعلًا يا مؤمل يريد أن يعلمنا من خلال هذه الكلمات درسًا عظيمًا في عدم مس الأبوين بأذى!

هزّ مؤمل رأسه بالإيجاب قائلًا :

- أحسنت .. وإن حدث ومسّهما ذلك الأذى منا بسبب الشيطان والنفس الإمارة بالسوء وقد يكون عن قصد أو غير قصد فيجب حينها ما أن نعرف حقيقة خطأنا أن نبادر إلى الاعتذار إلى الله أولًا ،ثم الاعتذار إليهما ثانيًا.. ثم الدعاء لهما بما دعا الإمام السجاد لأبويه في المقطع السابق بأن يجعل الله تلك الإساءة وذلك الأذى والعمل المكروه والسيء الذي بدر منا تجاههما أن يجعله الله ثوابًا لهما ويبدله من سيئة في صحيفتي إلى حسنةً في صحيفتهما!

ثم ينتقل عليه السلام إلى الحالة العكسية، أي إذا كان أبواه قد ضيّعا حقًا من حقوقه أو قصّرا في واجب من واجباتهما تجاهه، فيطلب منه سبحانه أن يغفر لهما ذلك التقصير وأن لا يحاسبهما عليه، وذلك بقوله في المقطع التالي من الدعاء (اللهم وما تعديا عليَّ فيه من قول، أو أسرفا عليَّ فيه من فعل أو ضيعاه لي من حق أو قصرا بي عنه من واجب ، فقد وهبته وجدتُ به عليهما ورغبتُ إليك في وضع تبعته عنهما، فإني لا أتهمهما على نفسي ولا استبطئهما في بري ولا أكره ما تولياه من أمري..)

وهنا يتضح لنا بأن الإمام عليه السلام يعلمنا أن لا نتهم الآباء والأمهات بالتقصير مهما بدر منهم بل وأن نغفر لهم كل ذلك وأن ندعو الله أن لا يؤاخذهما على ما ضيعاه لنا من حقوق.. هل تعلم لماذا يدعو الإمام بكل ذلك؟

قال ضياء مستغربًا :

- لا.. لا أعلم!

- استمع إلى المقطع التالي وستعرف!

" يا رب فهما أوجب حقًا عليَّ، وأقدم إحسانًا إلي، وأعظم مِنّةً لديَّ ...

أين إذًا يا إلهي طول شغلهما بتربيتي، وأين شدّة تعبهما في حراستي، وأين إقتارهما على أنفسهما للتوسعةِ عليَّ..؟؟ "

وهنا لمح مؤمل الدموع في عيني أخيه الأصغر وهو يستمع إلى تلك الكلمات النورانية..

قال مؤمل موجهًا كلامه لضياء :

- ها.. يا نور عيني؟ أراك غير محتاج لتفسير هذا المقطع من الدعاء؟

قال ضياء وهو يمسح دموعه : ما أشدّ تقصيرنا مع أبوينا يا أخي؟!!

19

قال ضياء في نهاية شرحه لدعاء الإمام السجاد عليه السلام :

- ويصل إمامنا السجاد عليه السلام إلى النتيجة الحتمية في علاقته مع والديه بالقول : " هيهات ما يستوفيان مني حقهما، ولا أدرك ما يجب عليَّ لهما، ولا أنا بقاضٍ وظيفة خدمتهما"..

هذه هي النتيجة التي يريدنا الإمام الانتباه إليها يا ضياء ، وهي إننا مهما عملنا لأبوينا من بر وخير فسيبقى لهما حقٌ علينا!!

وهذا يُذكرني برواية جميلة حيث جاء رجل إلى الأمام الصادق عليه السلام يخبره بأنه حمل أمه على ظهره عشر حجج وطاف بها الكعبة المشرفة في كل تلك الحجج فهل أوفى لها حقها؟ فكان مضمون جواب الإمام عليه السلام : ما كان ذلك يساوي طلقة واحدة من طلقاتها وهي تلدك!!

وفي رواية أخرى : ما كان ذلك يساوي شهرًا واحدًا في بطنها! فكيف وقد حملتك تسعة شهور؟!

وما دمنا تكلمنا عن حق الأم فحتمًا إنك سمعت بعض الأحاديث عن ذلك، فأخبرني ماذا تحفظ يا ضياء؟

قال ضياء باهتمام :

- تعلمت في المدرسة أن رسول الله قال (الجنة تحت أقدام الأمهات) .. هذا كل ما أعرفه!

- حسنًا.. اسمع إذن هذه الرواية الرائعة ، حيث جاء رجل إلى رسول الله " صلى الله عليه وآله " وهو يريد الجهاد وأمه تمنعه، فقال له رسول الله : عند أمك قرّ ، وإنّ لك من الأجر عندها مثل ما لك في الجهاد! (المصدر : كنز العمال)

فهل رأيت يا ضياء إنه حتى الجهاد في سبيل الله إذا كان من غير رضا الوالدين فهو حرام!!

قال ضياء بدهشة : عجيب!

- لا تعجب يا ضياء ألم يعلمنا رسول الله بأن رضا الله من رضا الوالدين؟

- نعم.. فعلًا!

نعود الآن إلى الدعاء الشريف إذ اقتربنا من نهايته، فلقد دعا الإمام عليه السلام في هذا المقطع بالقول (ولا تجعلني في أهل العقوق للآباء والأمهات يوم تجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون)!

نعم هكذا يجب أن ندعو دائمًا (اللهم لا تجعلنا من أهل العقوق للآباء والأمهات)..

ردّد ضياء من غير أن يشعر : آمين.. آمين!

ثم يقول الإمام في ختام دعاءه (اللهم لا تنسني ذكرهما في ادبار صلواتي وفي إنىً من آناء ليلي وفي ساعة من ساعات نهاري) وهذا دليل على أن علينا الدعاء لوالدينا بعد الصلوات وفي الليل والنهار!

وأخيرًا فهو يطلب من الله تعالى أن يرضى عن أبويه بشفاعته لهما هذا إن كانت مغفرة الله قد سبقت إليه قبلهما، أما إذا كانت المغفرة قد سبقت لأبويه فهو يدعوه سبحانه أن لا يحرمه شفاعتهما!

قال ضياء وكأنه ينظر إلى الماضي البعيد حيث زمن إمامنا السجاد عليه السلام : أي إنسان عظيم هذا الإمام!

قال مؤمل بفخر : ألم أخبرك بأن كلماته تعتبر مدرسة روحية عظيمة؟!

- نعم فعلًا.. لكن ماذا عن رسالة الحقوق؟ لقد وعدتني أن تذكر لي حق الأب والأم؟

- نعم وأنا عند وعدي سأخبرك عن حق الأب وحق الأم لكن اتمنى أن تعدني بأن تقرأ جميع الحقوق التي ذكرها الإمام السجاد عليه السلام في رسالته الرائعة تلك، كحق الأخ وحق المعلم وحق الجار وحق الصاحب وغيرها من الحقوق المهمة في تسيير أمور الحياة في الوجهة الصحيحة.

- أعدك بأني سأقرأها بإذن الله.

- حسنًا.. انظر ماذا يقول إمامنا السجاد في رسالته عن حق الأم :

(فحق أمك أن تعلم أنها حملتك حيث لا يحمل أحدٌ أحدًا، وأطعمتك من ثمرة قلبها ما لا يُطعم أحدٌ أحدًا، وأنها وقتكَ بسمعها وبصرها ويدها ورجلها وشعرها وبشرها وجميع جوارحها مستبشرة فرحة محتملة لما فيه مكروهها وألمها وثقلها وغمها حتى دفعتها عنك يد القدرة وأخرجتك إلى الأرض، فرضيت أن تشبع وتجوع هي! وتكسوك وتعرى - هي - وترويك وتظمأ - هي - وتظلك وتضحى - هي - وتنعمك ببؤسها وتلذذك بالنوم بأرقها، وكان بطنها لك وعاء وحجرها لك حواء، وثديها لك سقاء، تباشر حر الدنيا وبردها لك ودونك فتشكرها على قدر ذلك، ولا تقدر عليه إلا بعون الله وتوفيقه).

أما حق الأب فيقول عليه السلام :

(وحق أبيك أن تعلم أنك لولاه لم تكن ، فمهما رأيت في نفسك ما يعجبك فاعلم أن أباك أصل النعمة عليك فيه، فاحمد الله وأشكره على قدر ذلك، ولا قوة إلا بالله).

في هذه الفترة التي قضاها مؤمل في منزله وبين أفراد أسرته كان يحن بين اللحظة والأخرى إلى الأستاذ أحمد وزوجته

كان يحدث نفسه كثيرًا بالذهاب إليهما فهو يشعر بالحنين إلى ذلك المنزل الذي فتح فيه عينيه لأول مرة في حياته الجديدة هذه.

وفعلًا فلقد طلب الرخصة من والديه بالذهاب لمدة أسبوع إلى منزل السيد أحمد وأخبرهما بأن هذا سيكون جزء من رد الجميل لهما ولما قدماه له طيلة تلك الأشهر التي عاشها بينهم..

وكانت فرحة الزوجين لا توصف عند رؤيتهما لمؤمل وهو يحمل حقيبة ملابسه ويعود ليشاطرهما حياتهما ولو لفترة قصيرة!

وفي إحدى الجلسات التي تجمع الثلاثة معًا قال أحمد :

- متى ستبشرنا بقرب موعد زواجك يا ولدي؟

قال مؤمل مبتسمًا :

- أتمنى أن يكون عن قريب لولا أن هناك أمر آخر يشغلني!!

قالت كريمة :

- لا تقل بأن دعاء ما زالت تريد الانفصال؟!

ضحك مؤمل وهو يقول :

- لا لا بالعكس!

سأله أحمد :

- ما هو الأمر إذن ؟ شغلت فكري يا مؤمل!

قال مؤمل بثقة :

- أريد أن أعلن في الجرائد عن قراري بتغيير اسمي في هويتي الشخصية.

تفاجأ أحمد وقال بدهشة :

- ولكن لماذا؟

- لسببين : الأول هو أنني أريد أن أضع أهلي وأقاربي وكل من يعرفني أمام الأمر الواقع.. فما عدت ذلك الإنسان الذي عرفوه سابقًا باسم (خالد) بل انني اليوم مؤمل ذلك الإنسان الآخر! حتى أولادي في المستقبل بإذن الله أتمنى أن يحملوا اسمي الجديد .

- ولكن ماذا يهم الإسم يا مؤمل فالأعمال هي الأهم وليس الإسم يا ولدي!

- إن اسم مؤمل الذي اخترتماه أنتما لي يعني لي الكثير يا أبتي.

هزت هذه الجملة كل من أحمد وزوجته من الأعماق، وعرفا بأن مؤمل يريد أن يوضح لهما بأنه ابنهما الذي تمنيا انجابه منذ زمن!

أكمل مؤمل وقد لاحظ تأثر الزوجين :

- ولا تحملا هم والديَّ فلقد اقنعتهما وطيبتُ خاطرهما رغم أنني لم ألحظ عليهما أي استياء بل بالعكس رحبا بالموضوع!

أما السبب الثاني الذي يجعلني أعلن في الجرائد عن تغيير إسمي هو ان الإعلان في الجريدة الرسمية للبلاد سيطلب من كل من لديه اعتراض تقديم شكواه إلى المحكمة للنظر في سبب رفضه، حينها قد يقرأ الإعلان من لديهم عندي حقوقًا وهم يتوقعون موتي!!

ومن خلال ذلك الإعلان سيعرفون بأنني ما زلت حيًّا ولا أعرف هل ستنشر الجريدة صورتي ام لا لكني سأطلب نشر الصورة ليتعرف عليَّ من قد يجهل إسمي ولا يعرف إلا شكلي!

نعم فمن خلال هذه الطريقة سيتقدم من عنده شكوى إلى المحكمة للشكوى ضدي وتنتهي المشكلة!

صاح الاثنان :

- ماذا؟ وتنتهي المشكلة! بل قل تبدأ المشكلة!

ضحك مؤمل وهو يقول :

- لماذا لا تريدان أن تفهمانني! فالذي أريده هو أن أعرف حقوق الناس التي ما زالت على كاهلي، كنتُ سيئًا مع أهلي فما أدراني كيف كنت مع الأغراب!!

كنت أنتظر منكما أن تباركا لي هذه الخطوة لا أن تعارضانني هكذا؟!

وبعد أن أقنع مؤمل العائلتين بقراره الجريء هذا، اتجه نحو المحكمة ونفذ ما كان قد نوى عليه.

بعد أيام من إعلان الخبر في الجرائد استدعت المحكمة مؤمل للمثول أمامها!

في ظهيرة ذلك اليوم طرق باب المنزل رجل الشرطة الذي أرسلته المحكمة للقبض على خالد!

دخل ضياء راكضًا نحو غرفة أخيه وهو يصيح :

- مؤمل.. مؤمل إنه رجل شرطة يقول إن معه أمر بإلقاء القبض عليك!

قام مؤمل من مكانه بعد أن وضع الكتاب الذي كان يقرأ فيه جانبًا، وأسرع نحو الباب فإذا برجل الشرطة ينتظره وقد هيأ السلاسل لإلقاء القبض عليه!

خرجت الأم وكذلك ميساء وهما تبكيان وتتوسلان بالشرطي أن ينتظر حتى عودة والده!

فأجابهما أنه بإمكان والده أن يأتي خلفه إلى مركز شرطة المدينة ليستعلم الخبر.. أما الآن فيجب أن يكون خالد بقبضة الشرطة لوجود شخص يتهمه بتهمةٍ ما!

قدّم مؤمل يديه إلى رجل الأمن وهو يقول :

- أسرع يا سيدي فأنا أمامك!

تفاجأ الشرطي من هذا الموقف فقال وهو يضع السلاسل بيديه :

- إذن أنت تعترف منذ الآن بارتكابك لتلك الجريمة!

صاحت ميساء : ماذا؟ جريمة!

ضربت الأم على وجهها ثم سقطت على الأرض، حاول ضياء أن يساعدها على القيام وإدخالها إلى المنزل..

وفي السيارة سأل الشرطي مؤمل :

- كيف تجرأت على سرقة ذلك الانسان الطيب؟

صاح مؤمل : ماذا؟ سرقة!! هل أنا متهم بقضية سرقة؟!

قال الشرطي مستهجنًا كلامه :

- ولكن ألم تعترف قبل قليل بإنك يجب أن تقاد إلى مركز الشرطة؟ فأي تهمة أخرى تريد أن تعترف بها غير السرقة.. ها تكلم!

كانت تلك اللحظة من أصعب اللحظات على مؤمل، بل إنها أكثر لحظة تمنى فيها عودة ذاكرته!

بعد نصف ساعة تقريبًا كان مؤمل يمتثل أمام ضابط المباحث

وقبل أن يستوجبه بأي كلمة قام ذلك الضابط بالمناداة على شخص يدعى الحاج كاظم!

وما هي إلا لحظات حتى دخل رجل كبير في السن تبدو عليه علامات التقوى والصلاح، ألقى السلام فرفع مؤمل رأسه لينظر إليه وما أن وقع نظره على هذا الرجل حتى شعر بدوامة شديدة تضرب برأسه!! وصارت صور عديدة ومتلاحقة تظهر أمام عينيه وتختفي فجأة!

صار يسمع أصواتًا قوية تضرب بأذنيه جعلته يصرخ ويقع مغشيًا عليه!

تم نقل مؤمل إلى المشفى، وصل والده مع ضياء والأستاذ أحمد إلى مركز الشرطة فلم يجدوه وبعد أن استعلموا عن أمره اتجهوا نحو تلك المشفى، كان مؤمل قد إستعاد وعيه عندما دخل والده مع البقية.

حمدوا الله على سلامته، حينها قام ضياء بتسليم التقرير الطبي إلى الطبيب والذي يثبت من خلاله بأن خالدًا فاقدٌ لذاكرته!

مدَّ مؤمل يده إلى ذلك التقرير وهو يقول بألم :

- أرجعهُ إلى جيبك يا ضياء..!

قال ضياء مندهشًا :

- ولكن لماذا يا أخي؟

أجابه مؤمل ودموعه قد ملأت مقلتيه :

- لم أعد بحاجة إلى ذلك التقرير.. لقد عادت إليّ ذاكرتي!

20

صاح الجميع : ماذا؟ ما الذي تقوله؟

أجابهم مؤمل وقد سقطت دموعه صرعى أمام ذكريات الماضي المؤلم :

- نعم صدّقوني.. ما إن وقعت عيناي على الحاج كاظم في مركز الشرطة حتى عادت لي ذاكرتي ، فلقد كان هو آخر شخص علقت صورته في مخيلتي قبل الحادث، خاصة أنني قد تألمت لأجله كثيرًا عندما قام صاحبي مؤيد بضرب رأسه في الحائط بعد أن امتنع عن اعطائنا النقود، حينها وقع على الأرض وهو ينزف من رأسه بينما قمت أنا بجمع الأموال في كيس أظنه احترق مع مؤيد والسيارة في ذلك الحادث الذي نجوت منه بأعجوبة!

في هذه الأثناء وبينما كان مؤمل يسرد للجميع تفاصيل يوم الحادث دخل عليهم الحاج كاظم وهو يحمل باقة من الزهور!

اتجه نحو مؤمل وقدم إليه باقة الزهور تلك قائلا :

- عافاك الله يا ولدي.

أخذ مؤمل يد الرجل وقبلها وهو يقول :

- سامحني يا حاج.. أقسم بأنني نادم أشد الندم على ما فعلناه أنا وصديقي في تلك الليلة السوداء!

- لا بأس يا ولدي.

قام أبو خالد بتقديم التقرير الطبي للحاج كاظم والذي يثبت له بأن ولده كان فاقدا للذاكرة طيلة هذه الأشهر، أبدى الرجل قناعته بكل ما سمع ورأى، نظر إلى مؤمل قائلا :

- لقد عرفت من خلال موقفك في مركز الشرطة عندما رأيتني للوهلة الأولى بأن صحتك لم تكن تمام!! لذلك أتيت لزيارتك بنفسي، أما الآن وبعد أن عرفت الحقيقة كاملة فإني أسحب تلك الشكوى وأتنازل عن حقي في القضية.

صاح مؤمل وهو يتوسل إليه :

- لا.. لا! أرجوك يا حاج لا تتنازل عن حقك، فأنا يجب أن أنال القصاص العادل حتى ولو كان السجن لعدة أعوام، المهم أن أنال عقوبتي في الدنيا لعل الله يغفر لي في الآخرة.

دمعت عينا ذلك الرجل الطيب وهو يسمع هذه الكلمات من مؤمل مما جعله في حيرة شديدة!

حاول أبو خالد وكذلك الأستاذ أحمد وضياء من إقناع مؤمل بقبول عرض الحاج كاظم بسحب الدعوة وغلق الملف، لكن مؤمل أصر على تقديم تلك التهمة إلى القضاء ليأخذ مجراه!

بعد أيام قليلة اجتمع أفراد العائلة مع الأستاذ أحمد وزوجته وكذلك دعاء وأبويها في المحكمة ليستمعوا إلى حكم القاضي بخصوص قضية خالد..

كانت عينا دعاء متجهة نحو القضبان تنتظر مجيء خطيبها ودموعها تتسابق مع دقات قلبها!

لاحظت والدتها تلك الدموع وذلك الاضطراب فمدَّت يدها لتمسك بيد إبنتها وهي تهمس لها :

- اصبري يا حبيبتي.. ولا داعي لكل هذا القلق!

في هذه الأثناء لاحظ الجميع مجيء شرطيين وهما يمسكان بمؤمل ويدخلاه قفص الاتهام!

لم تحتمل دعاء منظر مؤمل وهو يقف خلف تلك القضبان، قامت من مكانها وهي تصرخ :

- اتركوه أرجوكم، أطلقوا سراحه أيها السادة، إنه بريء فهو ليس خالد كما تتوقعون!! أقسم لكم إنه شخص آخر!

نظر إليها مؤمل نظرة حادة فقد أثار موقفها هذا غيرته وهو يرى نظرات الرجال إليها ممن كانوا في تلك القاعة!

فهمت قصده من تلك النظرة فجلست وأسندت رأسها على كتف أمها وهي تبكي بصمت!

كانت والدته وأخته هما الأخريان لا تنفكان عن البكاء والنحيب، أما ضياء فما أن جلست دعاء حتى قام من مكانه وقد صار صوته يصدح في قاعة المحكمة :

- أن كنتم تطبقون العدل فعلا فاعلموا أن ما تقوله هذه الفتاة صحيح، هذا ليس خالد كما تتوقعون انه مؤمل ذلك الإنسان الطيب الذي لا يتجرأ على إيذاء حشرة، كيف تتهموه بهكذا تهمة؟!

صارت دموعه تجري وقد بُحَّ صوته وهو يصرخ، بكى كل من في القاعة وخاصة أن الجميع كان يعرف قصة مؤمل وفقدانه للذاكرة كل تلك الفترة، امتلأت القاعة بالأصوات والبكاء، أوقفت تلك الضجة ضربة قام بها القاضي على الطاولة التي أمامه ليعلن بدأ الجلسة وهو يصيح : محكمة!

لم تدم جلسة المحاكمة طويلًا فلقد اعترف خالد بكل شيء مسبقًا، ونظرًا لحالته الصحية ولاعترافه المسبق وكذلك إذعانًا لطلب الرجل المدّعي بتخفيف الحكم عن المتهم فلقد خففت المحكمة الحكم عليه، رغم أن الجريمة كبيرة والمبلغ الذي سرقه من ذلك الرجل كان مبلغًا كبيرًا إلا أن الحكم لم يكن إلا سنة واحدة!

كان مؤمل هو الشخص الوحيد الراضي بهذا الحكم، حتى الحاج كاظم كانت أمنيته الإفراج لولا إلحاح مؤمل واصراره.

قبل أن يأخذوه إلى السجن اتجهت إليه دعاء وقد أمسكت بيديه من خلف القضبان وهي تبكي بقوة، حاول مؤمل تهدأتها قائلًا :

- لا تبكي أرجوكِ! إنها سنة واحدة ليست أكثر، بعدها سيعوّضنا الله تعالى، وسنعيش أنا وأنتِ تحت سقف واحد بكل سعادة وهناء.. أعدكِ بذلك أيتها الحبيبة.

جاءت والدته وخالته وميساء وكذلك الحاجة كريمة وهنَّ يوّدعنه ويبكين، فما كان منه إلا أن أمسك بيد والدته وهو يقول :

- لا تخافي عليَّ يا أماه، فإن الله معي وسيكون سندي ومؤنسي طيلة فترة السجن.. سأستغل هذه السنة في حفظ كتاب الله (القرآن الكريم) لذلك تأكدي بأنه لن تصيبني الوحشة أبدًا ولن أشعر بالغربة أو الوحدة مطلقًا.. فمن كان مع الله كان الله معه.

بعد عامٍ كامل :

امتلأ بيت أبي مؤمل بالزينة والورود استعدادًا لخروج مؤمل من السجن..

قالت أم دعاء وهي تهمس في أذن ميساء :

- إن حزن دعاء عند سماعها خبر موت خالد لا يساوي شيئًا بالنسبة لحزنها على فراق مؤمل وهو في السجن!!

ضحكت ميساء وهي تقول :

- ولكن ما الفرق بين خالد ومؤمل يا خالتي! أوليس شخصًا وحدًا؟

قالت أم دعاء بابتسامة :

- وهذا ما كنت أقوله لدعاء في تلك الليالي التي قضتها بين الدموع والأحزان، لكن اتعرفين بماذا كانت تجيبني؟

- بماذا؟!

- كانت تقول لي : إن خالد ليس نفسه مؤمل!!

وكانت تضيف بأنها تحب مؤمل حتى أكثر من نفسها!!

ضحكت ميساء وقد بانت في عينيها الدموع وهي تقول :

- هذا لأنها ترى في مؤمل ما لم تكن تراه في خالد، مؤمل طاهر القلب صادق المشاعر رقيق الروح، لذلك تعلقت به دعاء إلى هذه الدرجة!

قطع حديثهما صوت ضياء وهو يصيح بلهفة : مؤمل، لقد جاء مؤمل!

ركض الجميع نحو الباب وهناك طالعهما وجه مؤمل بابتسامته الهادئة وهو يردد : السلام عليكم!

رمت ميساء بنفسها على أخيها وهي تقبله وتبكي، أما دعاء فلقد تسمرت في مكانها وهي تنظر لخطيبها وتردد بارتباك : حمدًا لله على سلامتك!

رد مؤمل السلام على خطيبته وكانت علامات الشوق بادية على نظراته، ثم اتجه نحو والدته التي لم تتمكن من الوقوف على قدميها بعد أن تدهورت صحتها في غياب ولدها الحبيب، احنى رأسه على يدها وهو يقبلها ويقول :

- أعذريني لأنني سببت لك كل هذا الألم على فراقي، ها أنا عدت أفضل من السابق!

قالت الأم وهي تحتضنه وتبكي :

- لقد أصبحت نحيلًا جدًا بسبب السجن يا ولدي، لا أراك أفضل من السابق كما تقول!

سلّم على خالته ثم أدار وجهه وهو يبحث عن وجه نسائي آخر!

انها الحاجة كريمة، وقف وقد وضع يده على صدره وهو يلقي عليها السلام إحترامًا وإجلالًا قائلًا :

- اشتقتُ إليكم يا حاجة، يشهد الله إنكِ أنتِ والحاج لم تفارقا مخيلتي طيلة وجودي في السجن.

وهنا دخل أبو مؤمل مع الأستاذ أحمد وهما يحملان أغراض مؤمل حيث أنهما كانا قد ذهبا إلى اصطحابه عند خروجه من السجن.

بعد أن التئم شمل الجميع وقد صدحت في أرجاء المنزل اهازيج الفرح والسرور وتجمعوا حول تلك الكعكة التي صنعتها دعاء بيديها احتفالا بعودة خطيبها، قال مؤمل :

- لا أعرف كيف أشكركم على وقفتكم معي طيلة هذه الفترة؟

قال والده وهو يشرب كأسًا من العصير:

- أتعرف كيف تشكرنا يا ولدي؟

- كيف يا أبتي؟ والله مهما عملت لكم فسأكون مقصرًا بحقكم!

- بل ستمنُّ علينا لو أكملت هذه الفرحة بتحديد موعد زواجك يا مؤمل! ها.. يا ولدي.. هل سنحدد ذلك الآن؟

احمرت وجنتا دعاء وهي تستمع إلى هذه الكلمات من عمها، وتمنت كما تمنى الجميع أن يسمعوا إجابة شافية من مؤمل!

قال مؤمل وهو ينظر إلى دعاء :

- سيكون ذلك عن قريب بإذن الله.

صاح ضياء :

- ولكن متى يا أخي؟ بالله ارحمني!

ضحك مؤمل متعجبًا من كلام أخيه وهو يقول :

- ولكن بماذا سينفعك زواجي حتى أرحمك به!؟

قال ضياء بشيء من المزاح :

- كيف بماذا ينفعني؟! إن تزوجتَ يا مؤمل فهذا يعني أن الدور القادم سيكون لي!

ضحك الجميع لكلام ضياء ثم تكلم مؤمل قائلًا :

- أنا أعرف أن دعاء قد تعذبت معي كثيرًا، ولقد طالت فترة الخطوبة أكثر من اللازم، ولقد حقق الله لي ثلاث أمنيات خلال العام الماضي وأدعوه سبحانه أن يحقق لي امنياتي الثلاث الباقية!

سألت أم دعاء بفضول :

- وهل لنا أن نعرف ما هي الأمنيات التي تحققت؟

- أولها يا خاله عودة ذاكرتي، والثانية أنني كنت قد دعوت الله أن آخذ عقوبة أعمالي في الدنيا لأني لا أقوى على عذاب الآخرة! وخاصة تلك التي تتعلق بحقوق الناس، وأظن أن السجن كانت استجابة من الله لي في هذا الشأن! أما الأمنية الثالثة فهي حفظ كتاب الله تعالى عن ظهر قلب ولقد تحققت لي بفضل الله وحفظت القرآن كاملًا خلال هذه السنة التي قضيتها في السجن.. وصدّقوني فرحتي بحفظ القرآن الكريم أكثر من فرحتي بخروجي من السجن!

دمعت عيون الجميع وهم ينظرون إلى انموذج رائع للشاب التائب وهم يستمعون إلى كلماته العذبة، وقد أنار الله وجهه بنور الإيمان، فبدى أجمل بكثير مما كان عليه في الماضي!

سألت الحاجة كريمة :

- وما هي الأمنيات الثلاث الباقية؟

- أولها يا حاجة أن أسدد ما في ذمتي لذلك الرجل المسكين الحاج كاظم، وثانيها أن يوفقني الله لأخذ أبي وأمي للحج إلى بيته الحرام، وثالثهما أن يجمعني الله بخطيبتي لتكتمل بذلك سعادتي!

قال الأستاذ أحمد :

- أما أمنيتك الأولى فلقد تحققت في ساعتها! لم اشأ إخبارك لكنك الآن تجبرني على ذلك، لقد سدّدتُ كل ما في ذمتك لذلك الرجل منذ أول يوم دخلتَ فيه في السجن!

دمعت عينا مؤمل وقد اتجه من فوره صوب أحمد وقبّله في يده وجبينه وهو يقول : كيف يمكن أن أجازيك على كل ما تفعله لأجلي!

قال أحمد وقد خنقته العبرة :

- أقسم لك يا ولدي، لو أن الله كان قد رزقني بولد من صُلبي فلن أحبه أكثر من حبي لك!

بعد شهر واحد من خروج مؤمل من السجن تم زواجه وقد جمعه الله بابنة خالته دعاء بعد سنوات من الصبر والانتظار..

وفي السنة التالية كان مؤمل يقف أمام الكعبة المشرفة وهو يناجي الله بـ " مناجاة الراجين" للإمام السجاد زين العابدين عليه السلام.. (يا من إذا سأله عبدٌ أعطاه، وإذا أمّلَّ ما عنده بلّغهُ مُناه، وإذا أقبلَ عليه قربه وأدناه، وإذا جاهره بالعصيان ستر على ذنبه وغطاه..)

بكى مؤمل وهو ينظر إلى رحمة الله تعالى في كل ما أعطاه!

بعد أيام كان واقفًا أمام قبر رسول الله (صلى الله عليه وآله) وهو يذرف دموع الندم ويستحي أن يدخل إلى المسجد الشريف بعد أن صار يتذكر كل صغيرة وكبيرة من أفعاله الماضية!

فجأة أحس بيد تمسك بكتفه من الخلف!

التفت فإذا به والده وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة رضا.

سأله مؤمل باستغراب :

- ألم تدخل المسجد يا أبي؟

- بل دخلنا أنا وأمك وزرنا قبر الرسول ولله الحمد، وما أن خرجنا حتى اتصل ضياء بنا ليبشرنا بأن دعاء قد أنجبت لك ولدًا!

كان الخبر مفرحًا جدًا لكن موقفه أمام المسجد النبوي فرض عليه نوع من الخشوع والاجلال، قال بهدوء : الحمد لله على سلامتها وسلامة المولود!

ابتسم الأب وهو يقول :

- ينتظرون منك أن تختار له إسمًا مباركًا!

قال مؤمل وهو ينظر إلى تلك القبة الخضراء :

- لا يوجد أمامي وأنا أقف أمام أعظم إنسان في هذا الكون إلا إختيار واحد لا غير.. مُحمَّد..

نعم قد أسميته مُحمَّد.

النهاية